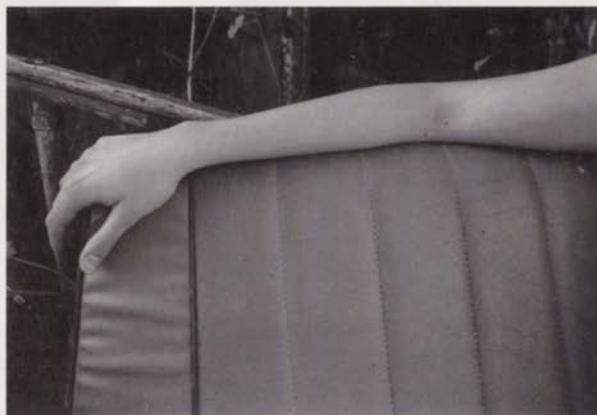


أليسندرو باريكو

مكتبة 416

حرير



ترجمة: إسكندر حبش

منشورات الجمل

رواية

مكتبة ٢٠١٩٥٥

ولد اسكندر حبش العام ١٩٦٢ في بيروت، شاعر وناقد ومترجم. دبلوم دراسات معمقة في الادب والفلسفة من جامعة «إكس أون بروفانس» - فرنسا، له عدة مجموعات شعرية وترجمات منشورة منها: «نصف تفاحة» (١٩٩٣)، «تلك المدن» (١٩٩٧)، و«أشكو الخريف» (١٩٩٨)، ومن الترجمات: «الايام الثلاثة الاخيرة من حياة فرناندو بيسوا» لانطونيو تابوكي (١٩٩٧)، «سيد البحار» لجوزيه سارنيه (٢٠٠٠)، «بور سودان» لاوليفيه رولان (٢٠٠٢)، «مورفين» لميخائيل بولفاكوف (٢٠٠٥).

اليسندرو باريكو: حريز، رواية، ترجمة: اسكندر حبش،

الطبعة الاولى ٢٠٠٧

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) - بغداد ٢٠٠٧

ALESSANDRO BARICCO: "SEITA"

© R.C.S. Libri. Milano. 1996

© Al-Kamel Verlag 2007

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

أليسندرو باريكو

حرير

رواية

ترجمة:

إسكندر حبش

مكتبة | 416

منشورات الجمل

مكتبة

telegram @ktabpdf

telegram @ktabrwaya

تابعونا على فيسبوك

جديد الكتب والروايات

(١)

بالرغم من أن والده تنبأ له بمستقبل لامع في الجيش، إلا أن الأمر انتهى بهيرفيه جونكور، بأن يكسب قوته، بفضل مهنة شاذة، لم تكن غريبة عنها - ولسخرية القدر - تلك السمات المحببة التي تنم، جيداً، عن انعطافة نسائية ملتبسة.

كي يعتاش، كان هيرفيه جونكور يشتري دود القز ويبيعه.

نحن في العام ١٨٦١. فلوبير يكتب روايته «سالامبو»، والإنارة الكهربائية لم تكن بعد سوى فرضية، بينما أبراهام لنكولن، وعلى الطرف الآخر من المحيط، يخوض حرباً لا يعرف متى نهايتها.

يبلغ هيرفيه جونكور الثانية والثلاثين من العمر.

يشتري ويبيع

دود القز.

(٢)

في الواقع، كان هيرفيه جونكور يشتري ويبيع دود القز وهي لما تزل بعد بويضات صغيرة ذات لون أصفر أو رمادي، جامدة وتبدو كأنها ميتة. بإمكانه أن يحمل على راحة كفه الواحدة، آلاف البويضات.

«يدعى هذا الأمر إقتناء ثروة بين يدي»

في أول أيام شهر أيار، تتفتح البويضات لتحرر اليرقانات التي - وبعد ثلاثين يوماً من التغذية القسرية المعتمدة على ورق التوت - تعود لتغلق على نفسها، داخل شرنقة، ومن ثم تنفلت مجدداً، بعد أسبوعين، بشكل نهائي، تاركة وراءها، إرثاً، يقدر بالخيطان، ألف متر من الحرير الخام، وبالدرهم، كمية هائلة من الفرنكات الفرنسية شريطة أن يتم كل شيء وفق النظام المعهود. هذا ما كان يقوم به هيرفيه جونكور، في إحدى المناطق الواقعة في جنوب فرنسا.

«لا فيل ديو» هو اسم القرية التي يعيش فيها هيرفيه جونكور.

هيلانة هو اسم زوجته.

لم ينجبا أطفالاً.

(٣)

كي يتجنب فتك الأوبئة التي تضرب غالباً - وبإضطراد -
مواسم التربية الأوروبية، كان هيرفيه جونكور، يرحل ويشتري
بويضات دود القز، من الطرف الآخر من البحر المتوسط، من
سوريا ومصر. هنا، كان يكمن الجانب الأكثر إثارة في عمله.
إذ، في كل عام وفي أول أيام شهر كانون الثاني، كان يرحل.
يجتاز ألفاً وستماية ميل بحري، كما ثمنمئة كلم بزي. من ثم
يستدير نصف استدارة، ليجتاز ٨٠٠ كلم براً و١٦٠٠ ميلاً بحرياً،
ليعود إلى «لافيل ديو»، أغلب الأحيان، في أول أحد من شهر
نيسان، وعادة قبل أن يحين موعد القداس الكبير.
إلى ذلك، كان يعمل لاسبوعين إضافيين في تغليف البويضات
وبيعها.

أما باقي أيام السنة فيرتاح.

(٤)

- «وكيف هي إفريقيا؟» يسأله الناس .

- مُتَعَبَةٌ .

كان يملك منزلاً كبيراً في آخر القرية، ومحترفاً صغيراً، في وسطها بالضبط، مقابل المنزل الذي هجره جان بيريك .

ذات يوم، قرر جان بيريك أن ينقطع عن الكلام وقد وفى بوعدِهِ . هجرته زوجته وإبنتاه . توفي . لم يرغب أحد في منزله . لذلك أصبح اليوم منزلاً مهجوراً .

عبر عمليات بيع دود القز وشرائه، كان هيرفيه جونكور يكسب كل عام، مبلغاً كافياً ليؤمن لزوجته ولنفسه، هذه الرفاهية، التي يميل الناس، في القرى، إلى تسميتها ترفاً . كان يلتذ بأمواله سراً، أما أن يصبح شخصاً غنياً جداً، فذلك أمر لا يهمله حقاً بل يجعله شخصاً غير مبال . على كل حال، إنه واحد من أولئك الرجال الذين يتمتعون بمراقبة حياتهم الخاصة، معتبرين، أن كل طموح في عيشها هو أمر غير لائق .

لاحظ البعض، أن أولئك الرجال يتأملون مصائرهم بالطريقة ذاتها التي تتأمل فيها غالبية البشر نهائياً مطيراً .

لو طُرح على هيرفيه جونكور السؤال، لأجاب، بأن حياته ستستمر على هذا المنوال للأبد. بيد أنه، في بداية الستينيات، أحال وباء التفلفل، البويضات الأوروبية بويضات غير نافعة للاستعمال، كذلك انتشر الوباء إلى ما وراء البحار، فوصل إلى إفريقيا، وبحسب البعض إلى الهند. في العام ١٨٦١، عاد هيرفيه جونكور من رحلته المعتادة، حاملاً مؤونة من البويضات، أصابها الوباء كلَّها تقريباً بعد مرور شهرين. بدت تلك السنة - بالنسبة إلى «لافيل ديو» كما بالنسبة إلى العديد من المدن الأخرى التي تغطي من إنتاج الحرير - كأنها تعلن بداية النهاية. بدا العلم غير قادر على فهم أسباب هذه الأوبئة. أما الأرض بأسرها، وحتى في قلب تلك المناطق النائية جداً، فقد بدت أسيرة هذه الرقبة غير المفهومة.

- ليست الأرض كلها، قال بالدابيو بهدوء، ليست كلها، وهو يسكب قليلاً من الماء في كأس اليانسون.

(٦)

كان بالدابيو ذلك الرجل الذي وصل إلى القرية قبل عشرين سنة. يومها، توجه مباشرة إلى ديوان العُمدة داخلاً عليه من دون أن يُعرّف عن نفسه، واضعاً على مكتبه وشاحاً حريرياً، بلون الشفق، سائلاً إياه:

- أتعرف ما هذا؟

- أمر يخص النساء.

- خطأ. إنه يخص الرجال: إنه مال.

طرده العمدة خارجاً. أما هو، بالدابيو، فقد بنى مصنعا للغزل، أسفل القرية، بالقرب من البحيرة، وعنبراً لتربية دود القز إلى جانب الغابة، وكنيسة صغيرة للقديسة أنيس، على تقاطع الطريق المؤدي إلى «فيفيه». استخدم عشرة عمال، جلب من إيطاليا آلة خشبية غامضة مليئة بالأسنان والدواليب، لم يتفوه بكلمة لأحد، لمدة سبعة أشهر، من ثم عاد إلى العمدة، ووضع على مكتبه - بترتيب - ثلاثين ألف فرنك من القطع النقدية الكبيرة.

- أتعرف ما هذا؟

- مال .

- خطأ . إنه البرهان على أنك مغفل .

إستعاد الأوراق النقدية ، وضعها في محفظته وهم بالرحيل .
أوقفه العمدة .

- بحق الشيطان ، ماذا يجب أن أفعل ؟

- لاشيء ، ستكون عمدة مدينة صغيرة غنية .

بعد خمس سنوات ، أصبح هناك في «لافيل ديو» ، سبعة مصانع للغزل ، إذ إنها أصبحت أحد المراكز الأوروبية الأساسية لتربية دود القز وغزل الحرير . لم تكن المصانع كلها ملكاً لبالدايو ، إذ تبعه بعض الوجهاء وبعض مالكي الأراضي المحليين في هذه المغامرة الصناعية الغريبة . لقد كشف بالدايو ، لكل واحد منهم ، ومن دون أي صعوبة ، أسرار المهنة . تبدى له أن التعليم أكثر تسليية من جمع الأموال الطائلة ، بالإضافة إلى امتلاك الأسرار كي يرونها . هكذا كان هذا الرجل .

(٧)

بالدايو أيضاً، كان هو الرجل الذي بدّل حياة هيرفيه جونكور قبل ٨ سنوات. في تلك الفترة، كانت أولى عوارض الوباء قد بدأت تفتك بإنتاج دود القز الأوروبي. تدارس بالدايو الوضع من دون أن يرف له جفن، وتوصل إلى النتيجة التالية: ليس للمشكلة حل بل يجب الالتفاف عليها. كان يملك الفكرة ولم يعد ينقصه سوى الشخص الذي سينفذها. تيقن أنه قد وجده حين رأى هيرفيه جونكور، وهو يمرّ من أمام مقهى فردان، متبخرّاً ببذته كصف ضابط في سلاح المدفعية، مثلما كان فخوراً بهيئته العسكرية كأنه في إجازة. يومها، كان هيرفيه جونكور في الرابعة والعشرين من عمره. دعاه بالدايو إلى منزله، وفرد تحت ناظريه أطلساً مليئاً بأسماء أكروتيكية وقال له:

- تهانتي، لقد وجدت أخيراً عملاً جاداً يا صغيري.

استمع هيرفيه جونكور إلى قصة تتحدث عن دود القز وعن البويضات وعن الاهرامات وعن سفر بالباخرة، ثم قال:

- لا أستطيع.

- لماذا؟

- لأن إجازتي تنتهي بعد يومين، وعليّ العودة إلى باريس.

- السلك العسكري؟

- أجل. والدي من قرر ذلك.

- ليس الأمر بمشكلة.

اصطحب هيرفيه جونكور معه، وذهب به إلى والده.

- أتعرف من هذا؟

- انه ابني.

- أنظر جيداً.

ترك العمدة نفسه يتهاوى على مسند مقعده الجلدي وبدأ بالتعرق.

- انه ابني هيرفيه الذي سيعود بعد يومين إلى باريس، حيث ينتظره هناك مستقبلاً لأمعاً في جيشنا، بمشيئة الله والقديسة أنيس.

- بالضبط، إلا أن الله مشغول بأمر آخر، والقديسة أنيس تحتقر العسكريين.

بعد شهر، رحل هيرفيه جونكور إلى مصر. سافر في باخرة تدعى «عادل»، حيث كانت رائحة الطبخ تصل إلى داخل القمرات. على متن الباخرة، كان هناك شخص انكليزي قال إنه حارب في «واترلو»، بينما بدأت الدلافين، في مساء اليوم الثالث، تلمع في الأفق، كأموج سكرى، في حين أن كرة الروليت لم تكن تتوقف إلا على الرقم ١٦.

عاد بعد شهرين - في أول أحد من شهر نيسان، عند موعد القداس الكبير - وفي جعبته آلاف البويضات المثبتة بقطن مندوف، داخل علبتين خشبيتين كبيرتين. ثمّة العديد من الأخبار كي يرويها. إلا أن ما سأله إياه بالدابيو، حين أصبحا وحيدين كان:

- أخبرني عن الدلافين.

- الدلافين؟

- حدثني عن المزة التي شاهدتها فيها.

هكذا كان بالدابيو.

لا أحد يعرف كم كان عمره.

(٨)

- ليست الأرض كلها، قال بالدابيو بهدوء، ليست كلها، قال ذلك وهو يسكب قليلا من الماء في فنجان اليانسون.

إنها ليلة من ليالي آب، والساعة تجاوزت منتصف الليل. عادة وفي مثل هذا الوقت، يكون «فردان» قد أقفل أبواب المقهى منذ وقت طويل. كان قد قلب الكراسي ونظف «الكونتوار» مثلما نظف بقية المكان. لم يعد أمامه سوى إطفاء الأنوار واغلاق الباب. بيد أن فردان كان ينتظر: فبالدابيو كان يتحدث.

كان هيرفيه جونكور جالسا قبالته، وبين شفثيه سيجارة مطفأة، ويستمع إليه ساكنا. ومثلما تحدث قبل ثماني سنوات، ترك الرجل يخطط له مصيره بهدوء. يصل صوته إليه ضعيفا وواضحا، موقعا من جراء جرعات اليانسون المنتظمة، من دون أن يتقطع، خلال دقائق طويلة. آخر ما قاله له كان:

- ما من خيار آخر. إن أردنا الاستمرار في الحياة علينا الذهاب إلى هناك.

ران الصمت .

رفع فردان، الذي كان مستنداً بمرفقيه إلى «الكونتوار»، عينيه ونظر إلى الرجلين .

حاول بالدابيو أن يجد جرعة إضافية من اليانسون في قعر فنجانه .

وضع هيرفيه جونكور سيجارته على حافة الطاولة قبل أن يقول - وأين تقع بالضبط، اليابان هذه؟

رفع بالدابيو عصاه في الهواء وصوبها إلى ما وراء سقف كنيسة القديس أوغوست .

- من هنا، بشكل دائماً مستقيم .
قال .

- حتى نهاية العالم .

في ذلك الزمن، كانت اليابان تقع، في الواقع، على الطرف الآخر من العالم. إنها جزيرة مؤلفة من عدة جزر، وقد عاشت مئتي سنة، في عزلة تامة عن باقي الانسانية، رافضة أي احتكاك مع العالم الخارجي، مثلما كانت ترفض أي دخول للغرباء إلى أراضيها. كان الساحل الصيني يقع على بعد مئتي ميل تقريباً، إلا أن مرسوماً إمبراطورياً حرص على أن يجعله أبعد، إذ منع على الجزيرة بأكملها، بناء أي باخرة بأكثر من سار واحد. ووفقاً لمنطقه الواضح على طريقته لم يكن القانون يمنع الهجرة، إلا أنه يحكم بالاعدام على من يحاول العودة إلى الوطن. لقد حاول التجار الصينيون والهولنديون والانكليز، مرات عدة، أن يكسروا هذه العزلة العبيثية، إلا أنهم لم ينجحوا إلا في انجاب شبكة من المهريين الخطيرين والهشين. لقد كسبوا القليل من المال والكثير من المتاعب كما العديد من الأساطير الجديرة بأن تروى، مساءً، في المرافئ. بيد أنه، وفي المكان الذي فشلوا فيه، نجح الأميركيون في الدخول، بفضل قوة السلاح. إذ أنه في العام ١٨٥٣، دخل العميد البحري ماثيو. س. بييري إلى مرسى

يوكوهاما، على رأس أسطول حديث من المراكب البخارية واضعا أمام اليابانيين إنذاراً «يتمنى» فيه فتح الجزيرة أمام الغرباء.

حتى تلك الفترة، لم يكن اليابانيون قد شاهدوا باخرة تستطيع امتطاء الموج، في مواجهة الريح.

وبعد سبعة أشهر، حين عاد بيرى ليرى جواباً على إنذاره، رضخت حكومة الجزيرة العسكرية لتوقيع اتفاق يتيح فتح الجزيرة أمام الغرباء عبر مرفأين في شمال البلاد، كما إقامة علاقات أولية تجارية حذرة. كان البحر حول هذه الجزيرة - ومثلما صرح العميد البحري بنوع من الفخامة - أقل عمقاً.

كان بالدابيو يعرف كل هذه القصص، وبخاصة أنه يعرف أسطورة غالباً ما تستعاد، في حكايات أولئك الذين ذهبوا إلى هناك. يقولون إنه في تلك الجزيرة يُصنع أجمل حرير في العالم منذ أكثر من ألف عام، وفقاً لتقاليد وأسرار وصلت بدقتها إلى ما يشبه السحر. من جهته، كان بالدابيو يعتقد أن الأمر ليس بأسطورة وإنما هو الحقيقة الخالصة والبسيطة. ذات يوم، أمسك بيده حجاباً مصنوعاً بخيط حريري من اليابان. بدا الأمر وكأنه لا يحمل شيئاً بين أصابعه. لذلك، حين تراءى له أن كل شيء سيتبدد أدراج الرياح بسبب قصة التفلفل هذه وبسبب البويضات المريضة، فكر بالتالي:

مكتبة

- ان هذ الجزيرة مليئة بدود القز. إذ أنها جزيرة، لم ينجح، خلال مثتي سنة، أي تاجر صيني أو أي كفيل انكليزي في الدخول إليها، وهذا يعني ان ما من مرض انتشر فيها.

لم يكتف بالتفكير بذلك، بل أخبر الأمر لجميع منتجي الحرير في «لافيل ديو»، بعد ان استدعاهم إلى مقهى فردان. إذ ما من أحد منهم سبق له أن سمع باليابان.

- أعلينا اجتياز العالم كي نذهب لشراء البويضات مثلما رغب
الله فيها، في مكان يشنقون فيه كل غريب يشاهدونه؟
- كانوا يشنقونه، حدد بالدابيو.

لم يكونوا يعرفون ماذا يقولون. إلا أن ثمة اعتراضاً ظهر عند
أحدهم.

- يجب أن يكون هناك سبب ما، لكي لا يفكر أحد في
العالم، بالذهاب إلى هناك بعد لشراء البويضات.

كان بمقدور الدابيو أن يتباهى مذكراً ان لا مكان في العالم،
يوجد فيه بالدابيو آخر. بيد أنه فضل قول الأشياء مثلما هي عليه.

- لقد خضع اليابانيون لعملية بيع حريرهم فقط، وليس لبيع
بويضاتهم، فهم يحتفظون بها لأنفسهم. من يحاول اخراجها من
الجزيرة يكون قد ارتكب جريمة.

كان منتجو الحرير في «لافيل ديو» - وبدرجات متفاوتة - من
السادة، لذلك لم يفكروا يوماً في نكث قانون مماثل في وطنهم.
ففرضية أن يقوموا بذلك، على الطرف الآخر من العالم، بدت
لهم، مع ذلك، فرضية رشيدة بشكل معقول.

إنه العام ١٨٦١ . كاد فلوبير ينتهي من كتابة سالامبو . أما الإنارة الكهربائية فلم تكن بعد سوى فرضية، فيما أبراهام لنكولن، وعلى الطرف الآخر من المحيط، يخوض حرباً لم يكن يرى نهايتها. اجتمع مرتبوا دود القز، في «لافيل ديو»، في حلقات، وبدأوا جمع المبلغ الكبير اللازم للرحلة. بدا لهم أن المنطق يفرض عليهم تكليف هيرفيه جونكور بالمهمة. حين سأله بالدابو إن كان يوافق، أجابه بسؤال:

- وأين تقع، بالضبط، اليابان هذه؟

- من هنا، بشكل مستقيم دائماً. حتى نهاية العالم.

انطلق يوم ٦ تشرين الثاني وحيداً. على أبواب «لافيل ديو»، ضم زوجته هيلانة على صدره قائلاً لها ببساطة،

- عليك أن لا تخافي من أي شيء.

كانت امرأة كبيرة، ذات حركات بطيئة، شعرها أسود طويل، لم تعقسه يوماً على رأسها. كان صوتها رائعا.

رحل هيرفيه جونكور، حاملاً معه ٨٠ ألف فرنك ذهبي، وأسماء ثلاثة رجال زوده بها بالدابيو: واحد صيني، وآخر هولندي، والثالث ياباني. اجتاز الحدود بالقرب من مدينة ميتر، وقطع ورتمبرغ وبافاريا، دخل إلى النمسا، ووصل بالقطار إلى فيينا ومن ثم إلى بودابست وتابع سيره حتى كييف. اجتاز على الحصان مسافة ألف كيلومتر من الهضاب الروسية، قطع جبال الأورال فدخل سييريا، وسافر لمدة أربعين يوماً قبل أن يصل إلى بحيرة بايكال التي يسميها أهل المنطقة هناك بحراً. عاد لينزل مسرى نهر «أمور»، محاذياً الحدود الصينية حتى المحيط، وحين وصل إلى هناك، بقي ١١ يوماً منتظراً في مرفأ سابيرك باخرة مهربين هولنديين لتنقله إلى كابو تيرايا، على الساحل الغربي في اليابان. وسيراً على الأقدام، متنقلاً فوق طرق فرعية، اجتاز مناطق إيشيكاوا وتوياما ونيغيتا، فدخل إلى بلدة فوكوشيما ليصل إلى مدينة شيرا كاوا، الذي التف عليها من ناحية الشرق، ليبتظر، ليومين، رجلاً مرتدياً ثياباً سوداء، عصب له عينيه، كي يقوده حتى قرية من الهضاب، حيث أمضى الليل هناك، وفي الصباح

التالي، تفاوض على عملية شراء البويضات مع رجل لا يتكلم
مطلقاً، ووجهه مغطى بحجاب حريري أسود. عند مغيب
الشمس، خبأ البويضات في حقائبه، وأدار ظهره لليابان، واستعد
لأن يستقل طريق العودة.

بالكاد كان قد خلف وراءه بيوت القرية الأخيرة، حين لحق به
رجل، راكضاً، ليوقفه. قال له شيئاً ما بنبرة مهتاجة وحاسمة،
ليعود به أدراجه بلياقة وحسم.

لم يكن هيرفيه جونكور يتحدث اليابانية، ولم يكن يفهمها
أيضاً. بيد أنه فهم ان هاراكي يرغب في رؤيته.

انزلت قطعة من ورقة الأرز، فدخل هيرفيه جونكور إلى الغرفة. كان هاراكي جالساً على الأرض، في ركن الغرفة البعيد وقدماه متشابكتان. كان يرتدي لباساً غامقاً ولا يحمل أي مجوهرات. الاشارة المرئية الوحيدة على سلطته، كانت المرأة الممددة بالقرب منه، فرأسها موضوع على ركبتيه وعيناها مغلقتان، وذراعاها مخبئتان تحت رداء آخر فضفاض ينتشر حولها، كشعلة، فوق الحصيرة ذات اللون الرمادي. كان هاراكي يمرر ببطء يده في شعرها، كأنه يداعب فراء حيوان نادر ونائم.

اجتاز هيرفيه جونكور الغرفة، وانتظر إشارة من مضيفه، ليجلس قبالة. بقيا صامتين، ينظران في عيني بعضهما البعض. فجأة، ظهر خادم ووضع أمامهما فنجان شاي واختفى. حينذاك، بدأ هاراكي بالحديث، بلغته، بصوت رتيب، يخففه ذلك النشاز المصطنع بشكل لا يطاق.

كان هيرفيه جونكور يستمع. ينظر بعينين ثابتتين إلى عيني هاراكي. للحظة، ومن دون أن يعي ذلك، أنزلهما على وجه المرأة.

إنه وجه امرأة شابة .

توقف هاراكي عن الكلام . أمسك بأحد الفنجانين ، رفعه إلى

شفتيه ، وبعد مرور لحظات قال :

- حاول أن تخبرني من أنت؟

قال ذلك بالفرنسية ، وهو يشدد قليلا على مخارج الحروف ،

بصوت أجش ، حقيقي .

حاول هيرفيه جونكور أن يخبر من هو عليه، هذا الرجل الأكثر حصافة في اليابان، المسؤول عن كل ما ينجح الناس في اخراجه من هذه الجزيرة. أخبره بلغته الخاصة، وهو يتكلم ببطء من دون أن يعرف بالضبط ان كان هاراكي يستطيع فهمه. وبشكل غريزي، تخلى عن كل حذر، قائلاً له - من دون أن يخترع شيئاً أو أن يغفل شيئاً - الحقيقة كلها، ببساطة. كان يجمع التفاصيل الصغيرة والأحداث الجسام، بصوت واحد، بحركات بالكاد تظهر، مقلداً مسار التنويم المغناطيسي، المحايد والكثير، لتهرس أشياء نجت من حريق. كان هاراكي يستمع، من دون أن يظهر على وجهه ظل أي تعبير. بقيت عيناه مثبتتان على شفتي هيرفيه جونكور كما لو أنهما كانتا آخر سطور في رسالة وداع. كل شيء هادئ في الغرفة وساكن لدرجة أنه إذا حدث شيء ما، سيبدو حادثاً عظيماً، ومع ذلك لم يحصل أي شيء.

فجأة

ومن دون أن تتحرك اطلاقاً

لم يتوقف هيرفيه جونكور عن الكلام بيد انه خفض نظره، غريزياً، صوب الفتاة، فرأى ومن دون أن يتوقف عن الكلام، انه «لم يكن لعيني الشابة شكلا مشرقيا» وبأنهما كانتا «بكشافتهما المقلقة» مصوبتان نحوه: كما لو انهما لم يفعلا شيئاً آخر منذ البداية، تحت الأجفان. أدار هيرفيه جونكور بصره بعيداً، بكل ما أوتي من طبيعية، محاولاً أن يكمل قصته، من دون أن يبدو أن شيئاً تغير في صوته. لم يتوقف، إلا حين سقط نظره على فنجان الشاي، الموضوع على الأرض، قبالبته. حمله وقربه من شفثيه وشرب متمهلاً، من ثم أكمل الحديث، واضعاً الفنجان أمامه مجدداً.

فرنسا، الرحلات البحرية، رائحة شجر التوت في «لافييل ديو»، القطارات التجارية، صوت هيلانة. استمر هيرفيه جونكور في رواية حياته كما لم يرو ذلك من قبل. استمرت الفتاة في تثبيت نظرها عليه، بعنف يفرض على كل عبارة من عباراته، أن ترن بشكل لا ينسى. بدأت الغرفة تتراعى كأنها انزلقت في ثبات دون عودة، حين، فجأة، وبشكل صامت تماما، أخرجت الشابة يدها من تحت ردائها، لتمدّها على الحاصرة أمامها. رأى هيرفيه جونكور وصول هذه البقعة الواضحة على هامش حقل رؤيته، وشاهدها تلمس فنجان هاراكبي، إلا أنها، وبشكل مفاجئ، تابعت تقدمها، كي تلتقط، من دون تردد، الفنجان الآخر، الفنجان «الذي شرب منه»، لترفعه بخفة وتحمله. لم يتوقف هاراكبي، ولو للحظة، عن النظر إلى شفتي هيرفيه جونكور من دون أن يصدر عنه أي تعبير.

رفعت الفتاة رأسها قليلاً.

للمرة الأولى، أشاحت نظرها عن هيرفيه جونكور، لتنظر إلى الفنجان.

ببطء، أدارته حتى وصل، إلى شفتيها، المكان الذي شرب منه .

أغمضت عينها نصف اغماضة، وشربت جرعة من الشاي .
أبعدت الفنجان عن شفتيها .
وضعتته بهدوء في المكان الذي أخذته منه .
أخفت يدها تحت رداؤها .
وضعت رأسها على ركبتي هاراكي .
عيناها المفتوحتان، تنظران بثبات إلى عيني هيرفيه جونكور .

استمر هيرفيه جونكور في حديثه لفترة طويلة . لم يتوقف إلا حين نزع هاراكي نظره عنه وحيّاه مطأطأاً نصفه الأعلى .
ران الصمت .

تحدث هاراكي ، بالفرنسية ، مشدداً بعض الشيء على مخارج الحروف ، بصوته الأَجش ، الحقيقي .

- إن رغبت في ذلك ، سيكون من دواعي سروري أن أراك تعود مجدداً

ابتسم للمرة الأولى .

- إن البويضات التي حصلت عليها ، هي بيض أسماك ، ليس لها أي قيمة .

خفض هيرفيه جونكور بصره ، أمامه ، كان هناك فنجان الشاي . أخذه وبدأ يديره ويتفحصه ، كما لو أنه كان يبحث عن شيء ما ، فوق الخط الذهبي الذي يلف حافته . وحين وجد ما

كان يبحث عنه، وضع عليه شفتيه، وشرب منه حتى الثمالة.
ليعود ويضع الفنجان أمامه وقال:

- أعرف

بدأ هاراكي بالضحك مسروراً.

- لهذا السبب دفعت ذهباً مزيفاً

- دفعت ثمن ما اشتريته

عادت سمة الجدية على هاراكي.

- حين تخرج من هنا، ستحصل على ما ترغب فيه.

- حين أخرج من هذه الجزيرة، ستحصل على نصيبك من

الذهب. انه وعد.

لم يستمع هيرفيه جونكور إلى الجواب. نهض وتراجع إلى

الخلف عدة خطوات ثم انحنى.

كان آخر ما رآه، قبل أن يخرج، عيني الفتاة الشابة، المبتتين

على عينيه، الجامدتين تماماً.

يعد ستة أيام، رحل هيرفيه جونكور إلى تاكاوكا على متن باخرة للمهريين الهولنديين، التي أنزلته في سابريك. من هناك، سار على الحدود الصينية حتى بحيرة بايكال واجتاز ٤ الاف كلم من الأراضي السيبيرية، قاطعا جبال الأورال، ليصل إلى كييف، قبل أن يقطع بالقطار، أوروبا بأكملها، من الشرق إلى الغرب، ليصل بعد ٣ أشهر من السفر، إلى فرنسا. في أول أحد من شهر نيسان - بالضبط قبل القديس الكبير - كان على أبواب «لا فيل ديو». توقف، شكر الله، ودخل إلى القرية سيراً على قدميه، محصياً خطواته، ليكون لكل خطوة اسماً، ولكي لا ينساها مطلقاً.

- وكيف هو آخر العالم؟

- غير مرئي.

قدم لزوجته هيلانة هدية، عبارة عن رداء حريري، لم تلبسه - على سبيل الحذر - مطلقاً. رداء لو شددت عليه بين يديك لشعرت بأن ليس بين أصابعك أي شيء.

بدت البويضات، التي أحضرها هيرفيه جونكور من اليابان -
 والمعلّقة بالمئات على وريقات صغيرة فوق لحاء شجر التوت -
 بدت بحالة سليمة تماما. لذلك جاء موسم انتاج الحرير في
 «لافيل ديو»، هذه السنة، ممتازاً، كمّاً ونوعاً. تم افتتاح معملين
 جديدين، وبنى بالدابيو ديرا مقابل كنيسة القديسة أنيس الصغيرة.
 ومن دون أن يعرف سبب ذلك حقاً، تخيله مستديراً، وعهد
 بالمشروع إلى مهندس اسباني يدعى خوان بنيتس، وكان يتمتع
 ببعض الشهرة في قطاع «ساحة الثيران».

- بالتأكيد لن نضع الرمل، في الوسط، وانما حديقة. وإن كان
 من الممكن ذلك، أرغب في وضع رؤوس دلافين، مكان رؤوس
 الثيران، عند المدخل؟

- دلفين يا سيدي؟

- يا بنيتس، أقصد السمكة!

أجرى هيرفيه جونكور بعض الحسابات واكتشف نفسه غنياً.
 اشترى ثلاثين أكرا^(١) تقع إلى الجنوب من ممتلكاته وانشغل طيلة

(١) «الأكرا» يساوي نحو ٤ آلاف متر مربع.

أشهر الصيف وهو يرسم حديقة، حيث سيتنزه فيها خفيفاً وصامتاً. كان يتخيلها غير مرئية مثل نهاية العالم. كل صباح، كان يسير، حتى مقهى فردان، ليستمع إلى قصص المدينة الصغيرة ولитصفح المجلات الواصلة من باريس. في المساء، يبقى صامتاً لفترة طويلة، تحت كثة منزله، بالقرب من زوجته هيلانة. كانت تقرأ كتاباً بصوت عال، وكان سعيداً. يقول لنفسه إن ما من صوت أجمل من صوتها في العالم.

بلغ الثالثة والثلاثين في الرابع من أيلول عام ١٨٦٢. كانت تمطر، وحياته، أمام عينيه، تمر كمشهد هادئ.

- عليك أن لا تخشى شيئاً.

بما أن بالدابيو قرّر ذلك، عاد هيرفيه جونكور ليرحل إلى اليابان في أول يوم من شهر تشرين الأول. اجتاز الحدود الفرنسية بالقرب من مدينة ميتز، ووصل في القطار إلى فيينا ومن ثم إلى بودابست وتابع سيره حتى كييف. اجتاز على ظهر الحصان مسافة ألف كلم من الهضاب الروسية ليقطع جبال الأورال، فدخل إلى سيبيريا وسافر لمدة أربعين يوماً قبل أن يصل إلى بحيرة البايكال التي كان يسميها أهل تلك المنطقة: الشيطان. عاد لينزل مجرى نهر أمور، مقترباً من الحدود الصينية، حيث بقي ١١ يوماً في مرفأ سابيرك منتظراً أحد مراكب المهربين الهولنديين لينقله إلى كابو كيرايا، على الساحل الغربي لليابان. وسيراً على الأقدام، وعبر طرق ثانوية، اجتاز مناطق ايشيكاوا وتويوما ونيغاتا، فدخل إلى منطقة فوكوشيما ليصل بالقرب من مدينة شيراكاوا، الذي التف عليها من ناحية الشرق. ثم وليومين انتظر رجلاً مرتدياً ثياباً سوداء، عصب له عينيه، ليقوده إلى قرية هاراكبي. حين فتح عينيه وجد أمامه قادمين أخذوا منه حقائب وسارا به إلى تخوم غابة،

حيث أشارا له إلى أعلى الدرب ومن ثم تركاه وحيداً. بدأ هيرفيه جونكور السير في ظل الأشجار، المنتشرة حوله، التي كانت تتقاطع مع نور النهار. لم يتوقف إلا حين انفتحت النباتات فجأة، للحظة قصيرة، مثل نافذة، على حافة طريق، رأى من خلالها بحيرة، على بعد ثلاثين متر من الأسفل. على ضفتها، كان هاراكى مقرفصاً على الأرض، مديراً ظهره، برفقة امرأة ترتدي ثوباً برتقالياً، بينما كان شعرها مسدولاً على كتفيها. وفي اللحظة التي شاهدها فيها هيرفيه جونكور، استدارت، ببطء، للحظة قصيرة، هي زمن التقاء النظرات.

لم يكن لعينيها شكلاً مشرقياً، بينما وجهها هو وجه فتاة شابة.

تابع هيرفيه جونكور سيره، في كثافة الشجر، وحين خرج منه، وجد نفسه على ضفة البحيرة. على بعد خطوات منه، كان هاراكى، وحده، مديراً ظهره، جالساً، بلا حراك، مرتدياً ثياباً سوداء. بالقرب منه، كان هناك ثوب برتقالي، ملقى على الأرض، كذلك خفين من القش. اقترب هيرفيه جونكور. ثمة ذبذبات متدافعة صغيرة تحمل مياه البحيرة نحو الشاطئ، كما لو انها بعثت إلى هنا، من بعيد.

- صديقي الفرنسي، همهم هاراكي، بدون أن يلتفت.

بقيا لساعات جالسين بالقرب من بعضهما البعض، وهما يتحدثان ويسكتان. فيما بعد، نهض هاراكي، فتبعه هيرفيه جونكور، وبحركة خفيفة، وقبل أن يعودا إلى الدرب، أوقع أحد قفازيه بجانب الثوب البرتقالي، المتروك على الضفة. وصلا إلى القرية عندما كان يهبط الظلام.

بقي هيرفيه جونكور في ضيافة هاراكي لمدة أربعة أيام. بدا الأمر كما لو أنه يعيش في قصر أحد الملوك. كانت القرية بأسرها تلتف حول هذا الرجل، وما من حركة، فوق هذه التلال، إلا لحراسته أو لمتعته. كانت الحياة تدمدم بصوت خفيض، تتحرك ببطء مليء بالخبت، كحيوان مطارد في عرينه. يتراءى العالم وكأنه على بعد قرون من هنا.

ثمة منزل خاص بهيرفيه جونكور، كما كان هناك خمسة خدام يتبعونه أينما سار. يتناول طعامه وحيداً، في ظل شجرة ملونة بالورود لم يرها أبداً. يقدم له الشاي لمرتين في اليوم باحتفالية ما. في المساء، يصطحبونه إلى أكبر قاعات المنزل حيث أرضيته من بلاط، وحيث يستعد لطقوس الاغتسال. ثلاث نساء، مستات، يغطين وجوههن بنوع من مسحوق أبيض، كن يتركن الماء تسيل على جسده وينظفنه بشراشف حريرية، فاترة. كانت أيديهن خشنة لكنها خفيفة.

في صباح اليوم الثاني، شاهد هيرفيه جونكور وصول رجل

أبيض إلى القرية» ترافقه عربتان مليئتان بحقائب خشبية كبيرة. كان رجلا انكليزياً. لم يأت من أجل أن يشتري شيئاً، بل لكي يبيع.

- أبيع السلاح يا سيد. وأنت؟

- أنا، أشتري. أشتري دود القز.

تناولا عشاءهما معا. كان عند الانكليزي الكثير من القصص ليرويها: منذ ثمانية سنوات، وهو يقوم برحلاته بين أوروبا واليابان. استمع إليه هيرفيه جونكور، ولم يسأله إلا عندما انتهى.

- أتعرف امرأة، شابة، أوروبية، بيضاء كما أعتقد، تعيش هنا؟

تابع الانكليزي تناول طعامه، بهدوء.

- ليس هناك نساء بيضاوات في اليابان. لا توجد امرأة بيضاء

واحدة في اليابان بأسرها.

- غادر الانكليزي في اليوم التالي، محملاً بالذهب.

لم ير هيرفيه جونكور هاراكى، مجدداً، إلا صبيحة اليوم الثالث: انتبه إلى أن خدامه الخمسة اختفوا فجأة، بسحر ساحر، ليراه يصل بعد لحظات. كان هذا الرجل - الذي يرتبط به كل شيء في هذه القرية - ينتقل دائماً داخل فقاعة فارغة. كما لو أن ايعازاً ما مضمراً كان يأمر الناس بتركه يعيش وحيداً.

صعدا معا سفح الرابية، قبل أن يصلا إلى فرجة غابة حيث كانت السماء، كما لو أنها مُخدّدة بطيران عشرات العصافير ذات الأجنحة الكبيرة الزرقاء.

- الناس هنا ينظرون إليها وهي تطير، وفي طيرانها يقرأون المستقبل.

قال هاراكى.

- حين كنت صبياً، أخذني والدي إلى مكان يشبه هذا المكان، فوضع قوسه بين يدي وأمرني بأن أصوب على أحد تلك العصافير. أطلقت السهم، فسقط عصفور كبير ذو جناحين زرقاوين على الأرض، مثل حجر ميت. إقرأ طيران سهمك ان كنت ترغب في معرفة مستقبلك، قال لي والدي.

عادا إلى القرية وهما يسيران في ضوء ما بعد الظهيرة القريب الذي يشبه ضوء المساء. بعد أن وصلا إلى حيث يقيم هيرفيه جونكور، تصافحا. استدار هاراكي وبدأ يمشي ببطء، نازلا عبر الطريق الذي يحاذي البحيرة. بقي هيرفيه جونكور واقفا، على العتبة، ناظراً إليه، انتظر إلى أن أصبح على بعد عشرين خطوة، ليقول:

- متى ستقول لي من هي هذه الشابة؟

تابع هاراكي سيره بخطوات بطيئة، لا يصدر عنها أي تعب. حوله، كان الصمت المطلق والفراغ. كما لو أن هناك إيعازاً خاصاً، إذ أينما يذهب، كان هذا الرجل يسير في وحدة غير مشروطة، في وحدة متكاملة.

في صبيحة اليوم الأخير، خرج هيرفيه جونكور من منزله وبدأ بالسير على طريق القرية. التقى برجال كانوا ينحنون أمامه على الطريق، وبنساء كنّ - وهنّ يخفضن عيونهنّ - يتسمن له. تيقن انه وصل إلى مكان ليس ببعيد عن منزل هاراكي حين شاهد شبكة كبيرة تحيط بعدد لا يصدق من العصافير من جميع الأنواع؛ بدا الأمر كفرجة. كان هاراكي قد أخبره بانه يأتي بها من جميع أرجاء الأرض، وبعضها يساوي أكثر ما تنتجه «لافيل ديو» من حرير على مدى سنة. توقف هيرفيه جونكور كي ينظر إلى هذا الجنون الرائع. تذكر انه قرأ في كتاب، ان الشرقيين - ولكي يحتفلوا باخلاص عشيقاتهم - وبدلاً من أن يقدموا لهنّ المجوهرات، إذ لم يكن ذلك من عاداتهم، كانوا يقدمون لهنّ العصافير الرهيفة والرائحة.

بدا مسكن هاراكي كأنه غارق في بحيرة من الصمت. اقترب هيرفيه جونكور وتوقف على بعد عدة أمتار من المدخل. لم تكن هناك أبواب، وعلى الجدران الورقية كانت تظهر خيالات لم تكن تزرع خلفها أي ضجة. لا يشبه ذلك الحياة: إذ لو كان هناك اسم

لذلك كله لكان: المسرح. من دون أن يعرف لماذا، توقف هيرفيه جونكور كي ينتظر: ثابتاً، واقفاً، على عدة أمتار من المنزل. وخلال هذا الوقت بأسره الذي تركه للقدر، كانت الظلال والصمت هما كل ما يتسرب من هذا المشهد المتفرد. حينذاك استدار وعاد ليسير، بخطوات سريعة، نحو منزله. كان رأسه منحنيًا، وينظر إلى خطواته، إذ يساعده ذلك على عدم التفكير.

في المساء رتّب هيرفيه جونكور حقائبه، ثم تركهم يقودونه إلى الغرفة الكبيرة ذات الأرضية الحجرية، من أجل طقس الحمام. تمدد، أغلق عينيه، وفكر بالشبكة الكبيرة، دليل الخب الخارق. وضعت على عينيه فوطة كبيرة مبللة. لم يحدث له هذا مطلقاً من قبل. غريزياً، رغب في نزعها، إلا أن يدا أمسكت بيده ومنعتها عن ذلك. لم تكن يد امرأة عجوز.

أحس هيرفيه جونكور بالمياه وهي تنساب على جسده، على ساقيه أولاً، ومن ثم على ذراعيه وصدره. مياه كما الزيت. ثمة صمت غريب يلف المكان. شعر بهشاشة غلالة حريرية وضعت عليه، كما بيدي امرأة - امرأة - كانتا تمسحانه وهما تداعبان جميع أنحاء جسمه: يداها وهذه القماشة المنسوجة من لاشيء. لم يتحرك ولو للحظة، ولا حتى حين شعر باليدين وهما تصعدان من كتفه إلى عنقه، وبالأصابع - الحرير، الأصابع - وهي تصعد حتى شفتيه، لتلمسها، لمرّة، ببطء، ثم تختفي.

أحس هيرفيه جونكور أيضاً بغلالة الحرير وهي ترفع عنه

وتبتعد. آخر ما شعر به، كانت يد فتحت له يده، ووضعت في راحته شيئاً ما.

انتظر لفترة طويلة، في الصمت، بلا حراك. ثم وببطء، رفع عينيه عن القماشة المبتلة. ما من ضوء تقريباً في الغرفة. لا أحد حوله. نهض. تناول رداءه الذي كان يرقد، مطوياً على الأرض، ليضعه، على كتفيه ويخرج من الغرفة، مجتازاً المنزل، ليصل أمام «بوريته»^(١) ويستلقي عليها. بدأ بتأمل الشعلة الرقيقة التي تتراقص داخل المصباح. وبمثابرة، أوقف الزمن، طوال الوقت الذي رغب فيه.

لم يكن من المهم، فيما بعد، بأن يفتح يده وينظر إلى الورقة. كانت صغيرة. عليها بعض الرموز المرسومة، الواحد فوق الآخر، بالحبر الأسود.

(١) حصير مصنوع من القصب.

في صباح اليوم التالي، رحل هيرفيه جونكور باكراً. كان يحمل معه آلاف بويضات دود القز التي خبأها بين حقائبه، بمعنى آخر كان يحمل مستقبل «لافيل ديو»، يحمل عملاً لمئات الأشخاص وثروة لعشرات آخرين. في المكان الذي يستدير فيه الطريق نحو اليسار، حيث يحجب تماماً منظر القرية خلف مرأى الهضبة، توقف، من دون أن يهتم بالرجلين اللذين كانا يرافقانه. ترحل عن الحصان حيث بقي لعدة لحظات على حافة الطريق ونظرته على هذه المنازل المعلقة بظهر الهضبة.

بعد ستة أيام، أبحر هيرفيه جونكور إلى تاكا ووكا، على متن باخرة مهربين هولنديين أوصلته إلى سابيرك. ومن هناك سار محاذياً الحدود الصينية حتى بحيرة البايكال فاجتاز أربعة آلاف كلم من الأراضي السيبيرية ليقطع جبال الأورال، فوصل إلى كييف ومن ثم عبر بالقطار أوروبا بأسرها، من الشرق إلى الغرب، قبل أن يصل، بعد ثلاثة أشهر من السفر إلى فرنسا - وفي أول أحد من شهر نيسان - عند القديس الكبير بالضبط، كان على أبواب «لافيل ديو». رأتها زوجته هيلانة وهي تركض

لاستقباله، فشتم رائحة جسدها حين ضمها بين ذراعيه مثلما تنشق
الحرير في صوتها حين قالت له

- لقد عدت

بنعومة قالت

- لقد عدت.

في «لافيل ديو»، تنساب الحياة ببساطة، فهي مضبوطة بمنهجية طبيعية. تركها هيرفيه جونكور تنساب عليه لمدة واحد وأربعين يوماً. وفي اليوم الثاني والأربعين، تراجع عن موقفه، ففتح جيباً في حقيبة سفره وأخرج منه خارطة اليابان، بسطها وتناول الورقة الصغيرة التي خبأها، قبل عدة أشهر. ثمة رموز مرسومة فوق بعضها البعض، بالحبر الأسود. جلس إلى مكتبة، وبقي هناك فترة طويلة وهو ينظر إليها.

وجد بالدابيو في صالة البليار عند فردان.

كان بالدابيو يلعب وحده دائماً، ضد نفسه، مباريات غريبة. يتواجه فيها السليم ضد الأكتع. هكذا كان يسميها. كان يقوم بالضربة الأولى بشكل طبيعي، أما الضربة الثانية فيبد واحدة. في اليوم الذي سيفوز فيه الأكتع، كان يقول، سأرحل عن هذه المدينة. ومنذ سنوات، كان الأكتع يخسر.

- بالدابيو، عليّ أن أجد أحدهم، هنا، يجيد قراءة اليابانية.

قام الأكتع بضربة مزدوجة مع ارتداد.

- إسأل هيرفيه جونكور، إنه يعرف كل شيء.

- أما أنا لا أفهم شيئاً.

- أنت الياباني هنا.

- ربما، إلا أنني لا أفهم اليابانية.

انحنى السليم على طاولة البليار وأرسل كرة ذات ست نفاط.

- إذا لم يبق أمامك سوى السيدة بلانشر. إنها تملك محلاً

للنسيج في «نيم». وفوق المحل هناك ماخور. إنه لها أيضاً. إنها

غنية ويابانية.

- يابانية؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

- لا تطرح عليها السؤال، إذا كنت تريد منها شيئاً. سحقا.

كان الأكتع قد فقد لتوه ضربة ثلاثية تساوي ١٤ نقطة.

قال هيرفيه جونكور لزوجته هيلانة، إن عليه الذهاب إلى نيم من أجل أعمال، وإنه سيعود في اليوم عينه.

صعد إلى الطابق الأول، فوق محل الأقمشة، الواقع عند شارع موسكا، وسأل عن السيدة بلانش. تركوه ينتظر مطولاً. كانت الشقة مؤثثة كما لو انها كانت لاحتفال، بدأ منذ سنوات، وانتهى. الفتيات كلهن شابات وفرنسيات. هناك عازف بيانو، كان يعزف، بصوت خفيض، بعض المقطوعات ذات الألحان الروسية. عند نهاية كل مقطوعة، يمرر يده اليمنى في شعره ويهمس بهدوء:

- هو ذاك.

انتظر هيرفيه جونكور قرابة الساعتين . من ثم اصطحبوه عبر الرواق ، حتى الباب الأخير . فتحه ودخل .

كانت السيدة بلانش جالسة على متكأها ، في مكان ليس ببعيد عن النافذة . ترتدي «كيمونو» مصنوعا من قماش خفيف ، أبيض اللون . عند أصابعها ، وكما لو أنها تضع خواتم عدة ، كانت تحمل وروداً صغيرة ذات لون أزرق كثيف .

- من الذي جعلك تعتقد أنك غني جداً كي تستطيع النوم معي؟

بقي هيرفيه جونكور واقفاً ، قبالتها ، وقبعته في يده .

- أنا بحاجة إلى خدمة منك ، لا يهم ثمنها .

ثم سحب من جيب سترته الداخلي ورقة صغيرة ، مطوية بشكل رباعي ، ومدّها إليها .

- عليّ أن أعرف ما هو مكتوب فيها .

لم تتحرك السيدة بلانش قيد أنملة ، أبقت على شفيتها مفتوحتين ، كأنها ما قبل تاريخ الابتسامة .

- انني أطلب ذلك منك يا سيدتي .

ما من سبب في العالم يجبرها على القيام بذلك . ومع هذا، تناولت الورقة، فتحتها ونظرت إليها . رفعت عينيها نحو هيرفيه جونكور ثم أخفضتهما .

أعادت طوي الورقة، على مهل . حين انحنت إلى الأمام لتعيد الورقة إليه، انشق الكيمونو بشكل خفيف عن صدرها . رأى هيرفيه جونكور انها لم تكن ترتدي شيئاً تحته وأن جلدها لا يزال فتياً ذا لون أبيض نقي .

- عد أو سأموت .

قالت تلك الجملة بنبرة باردة، وهي تنظر إلى عيني هيرفيه جونكور، من دون أن يصدر عنها أي تعبير .

عد أو سأموت .

أعاد هيرفيه جونكور وضع الورقة في جيب سترته الداخلية .

- شكراً .

حيّاه برأسه، استدار ومشى نحو الباب وهمّ بوضع بعض الأوراق النقدية على الطاولة .

- دعك من ذلك .

تردد هيرفيه للحظة.

- لا أتحدث عن المال. بل عن هذه المرأة. دعك منها. لن تمت وأنت تعرف ذلك.
من دون أن يستدير، وضع هيرفيه جوناكور الأوراق النقدية، فتح الباب ومضى.

يقول بالدابيو إن الرجال يأتون من باريس، أحيانا، لممارسة الحب مع السيدة بلانش. وعند عودتهم إلى العاصمة، كانوا يضعون على ياقة ملابس السهرة التي يرتدونها، بعض الورود الزرقاء الصغيرة، وهي الورود التي كانت تضعها بين أصابعها كالحواتم.

للمرة الأولى في حياته، اصطحب هيرفيه جونكور زوجته، في ذلك الصيف، إلى شاطئ الريفييرا. أقاما لأسبوعين في أحد فنادق مدينة نيس، الذي يتردد إليه، بخاصة، الإنكليز، والمشهور بأمسياته الموسيقية التي يحييها لربائنه. كانت هيلانة مقتنعة بأنه في مكان جميل كهذا، سينجحان في إنجاب ذلك الطفل الذي ينتظرانه، سدى، منذ سنوات. قرراً - معاً - انه سيكون صبياً وسيسميانه فيليب. اختلطا باحتشام، بحياة محطة الحمامات المدنية، وبعد أن عادا إلى غرفتهما، ضحكا على الشخصيات الغريبة التي التقيا بها. ذات مساء وخلال حفل موسيقي، تعرفا على تاجر فراء، بولندي، قال إنه ذهب إلى اليابان هو أيضاً.

في الليلة التي سبقت رحيلهما، وجد هيرفيه جونكور نفسه، يستيقظ من نومه، في حين كان الليل لا يزال حالكا، نهض من فراشه، ثم اقترب من سرير هيلانة. في اللحظة التي فتحت فيها عينيها، سمع صوته يقول بنعومة:

- سأحبك دوما.

في بداية شهر أيلول، اجتمع مربو دود القز في «لافيل ديو» ليقرروا ما يجب القيام به. لقد أرسلت الحكومة إلى مدينة نيم، عالم طبيعيات، شاب، كلفته بدراسة المرض الذي يحيل البويضات المنتجة في فرنسا، غير صالحة للاستعمال. كان يدعى لويس باستور ويعمل بمجاهر جديدة ترى غير المرئي: يقال إنه سبق أن حصل على نتائج مذهلة. ومن اليابان، كانت تتواتر أنباء تفيد وشوك وقوع حرب أهلية، سببها القوى التي تعارض دخول الغرباء إلى البلاد. لقد أرسلت القنصلية الفرنسية - الموجودة منذ فترة قصيرة في يوكوهاما - أنباء تنصح، في اللحظة الراهنة، بعدم إقامة علاقات تجارية مع الجزيرة، كما تدعو إلى الانتظار، لفترة معقولة. وبما أنهم يميلون إلى الحذر، وحساسون تجاه التكلفة الكبيرة التي تستوجبها رحلته في الخفاء إلى اليابان، اقترح العديد من وجهاء «لافيل ديو»، انه بالإمكان الاستغناء عن رحلات هيرفيه جونكور، والاكتفاء، لهذه السنة، بالتزود بالبويضات - الصالحة قليلا - التي يأتي بها كبار تجار الشرق الأوسط. استمع إليهم بالدائبو جميعا، من دون أن ينبس بكلمة. في النهاية، حين

جاء دوره في الكلام، اكتفى بوضع عصاه على الطاولة وبالنظر إلى الرجل الذي كان جالساً قبالة، وانتظر.

كان هيرفيه جونكور على إطلاع على أبحاث باستور، كما قرأ الأنباء الواردة من اليابان: بيد أنه رفض دائماً التعليق عليها. كان يفضل صرف وقته في مراجعة مشروع البستان الذي يرغب في تشييده حول منزله. وفي مكان سري، في مكتبه، يحتفظ بورقة صغيرة مطوية، عليها بعض الرموز المرسومة، الواحد فوق الآخر بالحبر الأسود. كان يملك أيضاً، حساباً مصرفياً جيداً، ويحيا حياة هادئة ويداعبه وهم، منطقي، بأنه سيصبح أباً، في القريب العاجل. حين نظر إليه بالدابيو، قال:

- القرار عائد لك يا بالدابيو.

رحل هيرفيه جونكور إلى اليابان عند أول أيام شهر أوكتوبر. اجتاز الحدود قرب مدينة ميتز، قطع الورتمبرغ وبافاريا، دخل النمسا، ووصل بالقطار إلى فيينا ومن ثم إلى بودابست وتابع حتى كييف. سار على ظهر الحصان مسافة ألف كيلومتر من الهضاب الروسية، قاطعا جبال الأورال، دخل سيبيريا وسافر لمدة أربعين يوماً قبل ان يصل إلى بحيرة الباكال، التي يسميها أهل المنطقة: الأخيرة. هبط مجرى نهر أمور واستمر في المسير على الحدود الصينية لغاية المحيط، وحين وصله، انتظر لمدة ١١ يوماً في مرفأ سابريك، باخرة مهربين هولنديين كي تأخذه إلى كابوترايا، على الساحل الغربي لليابان. ما وجده، كان بلداً غارقاً في انتظار مشوش لحرب لا أحد يعرف كيف ستدلع. سافر لعدة أيام، من دون أن يلجأ إلى الحيطرة المعتادة، فخارطة السلطة وأجهزة المراقبة، كانت تبدو كأنها انحلت حوله مع قرب وقوع انفجار سيعيد رسمها بالكامل. في شيراكادا، التقى بالرجل الذي سيقوده عند هاراكى. بعد يومين من السفر على ظهر الحصان، وصلا إلى مشارف القرية. دخل هيرفيه جونكور إليها سيراً على الأقدام، كي يسبقه إليها، خبر وصوله.

اقتيد إلى واحد من أواخر منازل القرية، في الأعلى، على تخوم الغابة. كان ينتظره خمسة خدام. سلمهم حقائبه وخرج إلى الشرفة. على الطرف المقابل للقرية، يطل قصر هاراكى، وهو بالكاد يبدو أعلى من المنازل الأخرى، إلا أنه محاط بأشجار الأرز العملاقة التي كانت تبعد عنه الوحدة. بقي هيرفيه جونكور يتأمله للحظات عدة، كما لو أنه ليس هناك أي شيء آخر، حتى الأفق. هكذا كان يعيش!

مكتبة

في النهاية

وفجأة

اسودت السماء فوق القصر من جراء تحليق مئات العصفير، كأنها انبجست من الأرض. عصفير من كل الأنواع، نزقة، هاربة في جميع الجهات، ممسوسة، تغني وتصرخ، ناربات تنبثق من أجنحتها، غيمة من ألوان وضجيج رُميت في الضوء، مرتعبة، موسيقى تتسرب، هنا في السماء، تطير.

ابتسم هيرفيه جونكور.

بدأت القرية بالدبيب مثل منملة مرتعبة: الجميع يركضون ويصرخون وينظرون في الهواء ليتابعوا بعيونهم هذه العصافير الهاربة - كبرياء سيدها خلال سنوات - والاهانة التي تطير حالياً في السماء. خرج هيرفيه جونكور من مسكنه وعاد ليسلك درب القرية، ماشياً ببطء وناظراً أمامه بطمأنينة أبدية. لم يبد على أحد أنه رآه، تصرف كما لو أنه لم ير شيئاً. كان خيطاً ذهبياً في لحمه سجادة نسجها مجنون. اجتاز الجسر فوق البحيرة. نزل حتى أشجار الأرز الكبيرة، دخل في ظلها وعاد ليخرج منه. أمامه، رأى الشبكة الكبيرة، بأبوابها المفتوحة، الفارغة تماماً. وأمامها، كانت هناك امرأة. لم ينظر حوالبه بل تابع سيره ببساطة، ببطء، فلم يتوقف إلا حين أصبح قبالتها.

لم يكن شرقياً شكل عينيها، ووجهها كان وجه فتاة شابة.

تقدم هيرفيه جونكور خطوة باتجاهها، مَدَّ لها ذراعه وفتح يده. على راحته، كانت هناك ورقة، مطوية. رأتها. ابتسم وجهها بأسره. وضعت يدها فوق يد هيرفيه جونكور، شددت عليها بنعومة، تركتها لحظة، ثم سحبتها، مستلة بين أصابعها هذه

الورقة التي قامت بجولة حول العالم. وما إن خبأتها في إحدى ثاياتها حتى صرخ صوت هاراكي.

- على الرحب والسعة أيها الصديق الفرنسي.

كان على بعد خطوات، يرتدي كيمونو غامق اللون، أما شعره، الأسود، فكان مجموعاً على رقبتة. اقترب. بدأ يتفحص الشبكة، ناظراً إلى أبوابها المفتوحة، الواحد بعد الآخر.

- ستعود. من الصعب دائماً مقاومة محاولة العودة، أليس

كذلك؟

لم يجب هيرفيه جونكور بشيء. نظر هاراكي إلى عينيه، وبهدوء عميق، قال له:

- تعال.

تبعه هيرفيه جونكور. قام ببعض الخطوات قبل أن يستدير نحو الفتاة الشابة وينحني لتحتها.

- أتمنى رؤيتك قريباً.

استمر هاراكي في السير.

- إنها لا تعرف لغتك.

قال.

- تعال.

في مساء اليوم نفسه، قام هاراكاى بدعوة هيرفيه جونكور إلى مسكنه. كان هناك بعض رجال القرية، وبعض النساء الأنيقات جداً، المخضبة وجوههن بالأبيض وبألوان فاقعة. شربوا الساكى، ودخنوا بغلايين خشبية طويلة نوعاً من التبغ ذي عطر مسكر وحريف. وصل البهلوانيون، ومن بينهم، رجل كان ينتزع الضحكات عبر تقليده حركات البشر والحيوان. ثلاثة عجائز كن يعزفن على آلات وترية، من دون أن يتوقفن أبداً عن الابتسام. كان هاراكاى جالساً في مقعد الشرف، مرتدياً ثياباً سوداء، حافي القدمين. في ثوب حريري، رائع. كانت المرأة ذات الوجه الشاب جالسة بالقرب منه. أما هيرفيه جونكور فكان إلى الجهة المقابلة من الغرفة: كان محاصراً بعطر ناعم لنساء تخضبن به ويبتسم بارتباك للرجال الذين يتسلون برواية قصص له لم يكن يفهمها.

ألف مرة بحث عن عينيها وألف مرة وجدت عينيه. يشبه الأمر رقصة حزينة، سرية وواهنة. لقد رمقها هيرفيه جونكور كثيراً، قبلاً في الليل ومن ثم نهض وقال شيئاً بالفرنسية كي

يعتذر، وليتخلص كيفما يستطيع من امرأة قررت أن ترافقه،
وليفتح طريقاً وسط غيوم الدخان والرجال الذين كانوا يهتممون
بلغتهم غير المفهومة، كي يرحل. قبل أن يخرج من الغرفة، نظر
إليها مرة أخيرة. كانت تنظر إليه هي أيضاً، وعيناها صامتتان
بشكل كامل، كأنهما على بعد قرون...

سار هيرفيه جونكور عبر القرية متنشقاً هواء الليل الندي، تائها
في الشوارع التي تصعد جنب الهضبة. حين وصل إلى مسكنه،
شاهد مصباحاً شاعلاً، يتأرجح خلف الحاجز الورقي. دخل
فوجد امرأتين واقفتين أمامه. الأولى شابة، شرقية، ترتدي كيمونو
أبيض بسيط، أما الثانية، فكانت هي. كان في عينيها نوع من
البهجة المحمومة. من دون أن تترك له الوقت لأي شيء، اقتربت
منه، أمسكت بيده وحملتها إلى وجهها، مستها بشفتيها، ومن
ثم، عصرتها بقوة، ووضعتها على يدي الفتاة الشابة التي كانت
بقربها وثبتتها، للحظة قصيرة، كي تستطيع يده أن تفلت. في
النهاية، سحبتها، تراجعت خطوتين، أمسكت بالمصباح، نظرت
نظرة قصيرة إلى هيرفيه جونكور وهربت راکضة. كان مصباحاً
برتقالياً. اختفت في الليل، كأنها نور صغير كان يهرب.

t.me/ktabpdf

لم يكن هيرفيه جونكور قد شاهد هذه الشابة من قبل، كما أنه لم يرها هذه الليلة أيضاً. ففي الغرفة المعتمة، التي من غير نور، شعر بجمال جسدها وعرف يديها وفمها. ضاجعها لساعات عدة، بحركات لم يقم بها قبلاً، ترك نفسه تتعلم، ما لم يكن يعرفه. في العتمة، لم يكن شيئاً، أن يحبها، أو أن تحبه، هي.

قبل الفجر بقليل، نهضت الفتاة الشابة، ارتدت الكيمونو الأبيض، ورحلت.

في مقابل سكنه، وعند الصباح، وجد هيرفيه جونكور أحد رجال هاراكي ينتظره. كان يحمل ١٥ ورقة من جذع التوت، مغطاة بشكل كامل ببويضات: ببويضات صغيرة، ذات لون عاجي. تفحص هيرفيه جونكور كل ورقة، بعناية. بعد ذلك، تفاوض على السعر، ودفع رقائق ذهبية. قبل أن يرحل الرجل، أفهمه أنه يرغب في رؤية هاراكاى. هز الرجل برأسه. فهم هيرفيه جونكور، من حركاته، أن هاراكاى قد رحل في صباح اليوم نفسه، باكراً، مع حاشيته، وأن لا أحد يعرف متى يعود.

اجتاز هيرفيه جونكور القرية راكضاً، حتى منزل هاراكاى. لم يجد سوى خدام، كانوا، عند كل سؤال، يجيبون وهم يهزون رؤوسهم. بدا المنزل قاحلاً. وبالرغم من أنه بحث حوله، حتى في الأشياء العديمة المعنى، إلا أنه لم ير شيئاً يشبه رسالة وجهتها إليه. غادر المنزل، وفي طريق عودته نحو القرية، مرّ من أمام الشبكة الهائلة. كانت أبوابها قد أقفلت مجدداً. وفي داخلها مئات العصافير تطير، في حمى السماء.

انتظر هيرفيه جونكور، ليومين آخرين، إشارة ما. لكنه رحل في النهاية.

على مسافة أكثر من نصف ساعة من القرية، وجد نفسه يمرّ في مكان ليس ببعيد عن غابة تصل منها ضجة متفرّدة. كانت هناك، تختبئ بين الأوراق، آلاف البقع الغامقة لسرب من العصافير. توقف هنا، كي يرتاح. ومن دون أن يشرح شيئاً للرجلين اللذين كانا يرافقانه، أوقف هيرفيه جونكور حصانه واستلّ مسدسه من حزامه وأطلق ست طلقات في الهواء. ارتفع سرب العصافير - الذي أصيب بالرعب - في السماء، مثل عمود دخان ناتج عن حريق. ارتفع عالياً جداً حتى لتراه من على بعد أيام وأيام من السفر. عمود أسود في السماء، لا هدف له سوى طيرانه الخاص.

بعد ستة أيام، أبحر هيرفيه جونكور إلى تاكاووكا، على متن باخرة مهربين هولنديين أنزلته في سابيرك. ومن هناك، صعد الحدود الصينية حتى بحيرة البايكال، اجتاز ٤ الاف كلم من الأراضي السيبيرية، قاطعا جبال الأورال، ليصل إلى كييف وليسافر في القطار عبر أوروبا، من الشرق إلى الغرب، قبل أن يصل، بعد ثلاثة أشهر من السفر إلى فرنسا، في أول أحد من شهر نيسان، بالضبط قبل القداس الكبير، حين كان على أبواب «لافيل ديو». أوقف عربته، وللحظات قليلة، بقي جالساً، بلا حراك، خلف الستائر المسدلة. ومن ثم هبط وتابع سيراً على الأقدام، خطوة إثر خطوة، بتعب لا محدود.

سأله بالدابيو ان كان رأى الحرب.

- ليست تلك التي كنت أنتظرها، أجاب.

في الليل، جاء إلى فراش هيلانة وضاجعها بنفاذ صبر، لدرجة أنها خشيت منه ولم تستطع منع دموعها. حين رأت أنه لاحظها وهي تبكي، جاهدت في الابتسام له:

- أبكي فقط لأنني سعيدة جداً، قالت له بهدوء.

سَلَّم هيرفيه جونكور البويضات إلى مربى دود القز في «لافيلا ديو». من ثم، وخلال أيام، لم يظهر في أنحاء البلاد، حتى أنه أهمل مروره اليومي المعتاد على مقهى فردان. في أولى أيام شهر أيار، ووسط دهشة الجميع، اشترى منزل جان بيربيك المهمل، منزل ذلك الشخص الذي توقف يوماً عن الكلام والذي لم ينس بحرف حتى وفاته. ظنَّ الجميع انه ينوي تشييد محترفه الخاص الجديد. لم يهتم بطرد هذه الفكرة من رؤوسهم. كان يذهب إلى المنزل، من وقت لآخر، ليبقى وحيداً، في غرفته، من دون أن يعرف أحد، ماذا يفعل. ذات يوم اصطحب معه بالدابيو.

- أتعرف، أنت، لماذا توقف جاك بيربيك عن الكلام؟ سأله.

- إنها أحد الأشياء العديدة التي لم يتحدث عنها.

كانت قد مضت عدة سنين، بيد أن الاطارات لا تزال معلقة على الجدران، كما الأواني على منصة التجفيف بالقرب من المجلى. لم يكن الجو فرحاً، وكان بالدابيو، من جهته، يرغب في الخروج. إلا أن هيرفيه جونكور استمر في النظر، مدهوشاً،

إلى هذه الجدران المتعطنة والميتة. الأمر واضح: إنه يبحث عن شيء ما، هنا.

- ربما كانت حياتك، أحياناً، تناسب بشكل غريب، ولا شيء لتضيفه إليها.
قال.

- لا شيء. أبداً.

لم يكن بالدايو مفطوراً حقاً على الأحاديث الجديدة. كان ينظر إلى سرير جان بيريك.

- ربما، أي شخص، قد يصبح أخرس، في منزل مرعب كهذا.

لفترة أخرى، استمر هيرفيه جونكور في عيش حياته المنزوية، إذ لم يكن يظهر إلا في النادر، في أرجاء البلدة، صارفاً وقته كله بالعمل على مشروع المنتزه، الذي سيبنه في يوم أو آخر. كان يُسود أوراقاً وأوراقاً برسوم غريبة، حتى لقال من شاهدها، إنها عبارة عن آلات. ذات مساء سأله هيلانة:

- ما هذا؟

- إنها مَطَيِّرة.

- مَطَيِّرة؟

- أجل

- ما الهدف منها؟

استمر هيرفيه جونكور في النظر بثبات إلى رسومه .

تملاً بالعصافير، بأكثر مما تستطيعين، وفي اليوم الذي يحدث

لك فيه، أمر سعيد، تفتحين الأبواب وتشاهدينها وهي تطير .

في نهاية شهر تموز، ذهب هيرفيه جونكور برفقة زوجته إلى نيس. أقاما في فيلا صغيرة، على شاطئ البحر. هيلانة هي من رغبت في ذلك، إذ كانت مقتنعة أن طمأنينة ملجأ معزول، سينجح في تعديل المزاج الكئيب الذي يفوح من زوجها. وبعد أن حصلت على العنوان، تظاهرت، بأن اختارها هذا، هو نزوة شخصية، واهبة للرجل الذي تحبه متعة مسامحته.

عاشا معا ثلاثة أسابيع من الغرام والسعادة الكاملة. في النهارات التي تكون فيها الحرارة أكثر اعتدالاً، يستأجران عربة فيكر^(١) ويلهوان باكتشاف القرى المختبئة على الهضاب حيث يشبه البحر ديكوراً من الأوراق المرسومة. أحياناً، يذهبان إلى المدينة من أجل حفل موسيقي أو من أجل مناسبة اجتماعية.

ذات مساء، قبلا دعوة بارون إيطالي، كان يحتفل بعيد ميلاده الستين، لعشاء رسمي في «فندق سويسرا». كان وقت

(١) فيكر، عربة جواد، والاسم مأخوذ من مكان استعملت فيه هذه العربات للمرة الأولى.

تناول الحلوى، حين نظر هيرفيه جونكور نحو هيلانة. كانت جالسة على الطرف الآخر من الطاولة، قرب سيد انكليزي فاتن، وللصدفة، كان يعلق عل خلفية ثيابه حلقاً من الورود الزرقاء الصغيرة. رآه هيرفيه جونكور وهو ينحني صوب هيلانه ويهمس لها شيئاً في أذنها. ضحكت هيلانة، ضحكة رائعة، وقد انحنى قليلا وهي تضحك باتجاه السيد الانكليزي، لدرجة أنها لامست كتفه بشعرها، بحركة بلا أدنى اضطراب إلا أنها كانت تدل فقط عن دقة محيرة. خفض هيرفيه جونكور عينيه إلى صحنه. لم يستطع إلا أن يلاحظ أن يده، التي كانت تصرّ على الملعقة الفضيّة الصغيرة، بدأت بالارتجاف بشكل لا يقبل الشك.

لاحقاً، وفي غرفة التدخين، اقترب هيرفيه جونكور - الذي يترنح من كثرة الكحول التي شربها - من رجل كان جالساً، بمفرده، إلى طاولة، ينظر أمامه، وعلى وجهه تعبير من الذهول المبهم. انحنى باتجاهه وقال له ببطء:

- عليّ أن أسرّ لك بشيء مهم جداً يا سيدي. إننا كريهون جميعاً. كلنا رائعون وكريهون جداً.

كان الرجل من مدينة دريسدن. تاجر لحوم ولا يفهم الفرنسية

جيداً. انفجر بضحكة عنيفة، هازا رأسه بعلامة رضا. لمرات
عدة، بدا وكأنه لن يتوقف أبداً.

بقي هيرفيه جونكور وزوجته على الريفيرا حتى بداية شهر
أيلول. غادرا بندم الفيلا الصغيرة، إذ أنهما أحسا، بشكل
خفيف، وبين هذه الجدران، ثمرة أن يتحابا.

(٤١)

وصل بالدايو إلى منزل هيرفيه جونكور في الصباح الباكر.
جلسا تحت الكثة .

- ليس بذي شأن هذا البستان .

- لم أبدأ بينائه بعد يا بالدايو .

- آه . لهذا السبب إذا .

لم يكن بالدايو يدخن في الصباح أبداً . أخرج غليونه ، حشاه
واشعله .

- التقيت بباستور هذا . لطيف هو هذا الرجل . لقد جعلني
أرى . إنه يجيد فصل البويضات المريضة عن البويضات الجيدة .
بالطبع هو لا يجيد مداواتها ، لكنه يستطيع عزل البويضات
الجيدة . يقول إنه من المحتمل ، ان هناك ثلاثين بالمئة مما نتجه
بهذا الشكل .

توقف بالدايو عن الكلام .

- يقال إن الحرب اندلعت في اليابان ، وهذه المرة لصالحنا .
الانكليز يقدمون السلاح للحكومة ، أما الهولنديون فيقدمون

السلاح للثوار. يبدو أنهم متفقدون في ما بينهم. سيدعون الطرفين يتقاتلان، ومن ثم يستولون على كل شيء ويتقاسمونه. القنصل الفرنسي يراقب، وهم موجودون هناك دائماً، لدرجة أنهم يرسلون الأشياء ليرووا فيها عن المذابح وعن الغرباء الذين يذبحون كالخراف.

توقف بالداييو عن الكلام.

- ألا يزال هناك بعض القهوة؟

صبَّ له هيرفيه جونكور القهوة.

توقف بالداييو عن الكلام.

- ذاك الايطاليان، فيريري والآخر، اللذان ذهبا إلى الصين،

في السنة الماضية... لقد عادا بـ ١٥ ألف أقة من البيوضات، من

البضاعة الجيدة. لقد اشترى منهما أيضاً تجار «بوليه»، قالوا إنها

بضاعة باب أول. سيفاداران مجدداً في غضون شهر... اقترحوا

علينا اقتراحاً مثيراً. إن أسعارهم مناسبة وشريفة، ١١ فرنكاً

للأقة، وكل ذلك مغطى بالتأمين. إنهما شخصان جادان، كما أن

ثمة منظمة تقف خلفهما، إنهما يبيعان البيوضات لنصف أوروبا.

إنهما جادان أقول لك.

توقف عن الكلام.

- لا أعرف، ولكن قد ننجح في ذلك. مع بويضاتنا ومع العمل الذي يقوم به باستور، ومن ثم مع ما نشتره من الايطاليين، قد ننجح. يقول الآخرون هنا إنه من الجنون إرسالك إلى هناك... بكل ما يكلف ذلك، يقولون إن في الأمر مخاطرة كبيرة، إنهم على حق. المرات الماضية كانت مختلفة جداً، لكن الآن... الآن أصبح من الصعب العودة حياً من هناك. توقف عن الكلام.

- القضية انهم لا يرغبون في المخاطرة لفقدان البويضات، وأنا لا أريد المجازفة بفقدانك.

بقي هيرفيه جونكور لحظة وهو يتأمل «البارك» الذي لم يعد موجوداً. ثم قام بعمل لم يقم به أبداً من قبل.
- سأرحل إلى اليابان.
قال.

- سأشتري تلك البويضات، وإن توجب عليّ ذلك، سأشتريها بمالي الخاص. عليكم أن تقررنا فقط إن كنت سأبيعه لكم أم لشخص آخر.

لم يكن بالدابيو يتوقع ذلك. بدا الأمر كما لو أنه رأى أكتعا يكسب معركة جميلة ضد أربعة أشخاص، ضد هندسة مستحيلة.

أعلن بالدايو إلى المربين في «لافيل ديو» بأنه يصعب تصديق باستور، وبأن هذين الايطاليين قد احتالا على نصف أوروبا، وبأن الحرب في اليابان ستنتهي قبل الشتاء وبأن القديسة أنيس جاءت في الحلم وسألته عما إذا كانوا جميعاً جيشاً من الجبناء. لم يكن يستطيع الكذب على هيلانة.

- هل من الضروري أن يرحل حقاً يا بالدايو؟

- كلا.

- لماذا إذا؟

- لا أستطيع منعه. إن أراد الذهاب إلى هناك، أستطيع فقط أن أعطيه سبباً إضافياً كي يعود.

دفع جميع مربى «لافيل ديو»، طوعاً أو قسراً، نصيبهم من أجل تمويل الرحلة. بدأ هيرفيه جونكور تحضيراته، وفي أولى أيام شهر أكتوبر، كان مستعداً للرحيل. ساعدته هيلانة كما في السنوات السابقة، من دون أن تسأله شيئاً، خافية عليه ما يمكن أن يشعره بالقلق. فقط، في مساء رحيله، وبعد أن أطفأت النور، وجدت الشجاعة لتقول له:

- عدني أنك ستعود

قالت ذلك بصوت حازم، من دون نعومة:

- عدني أنك ستعود.

في الظلام، أجاب هيرفيه جونكور:

- أعدك.

في العاشر من شهر أكتوبر من العام ١٩٦٤، انطلق هيرفيه جونكور في رحلته الرابعة إلى اليابان. قطع الحدود بالقرب من متز، اجتاز ورتمبرغ وبافاريا، دخل إلى النمسا، وصل بالقطار إلى فيينا وبودابست وتابع سيره نحو كييف. قطع على ظهر الحصان مسافة ألفي كلم من الهضاب الروسية، حاذى جبال الأورال ودخل إلى سيبيريا، سافر لمدة أربعين يوماً قبل أن يصل إلى بحيرة بايكال، التي يطلق عليها أهل المنطقة اسم القديسة. ثم نزل مجرى نهر أمور، سار على الحدود الصينية لغاية المحيط، وعندما وصل إليه، بقي ١١ يوماً في مرفأ سابيرك منتظراً أن يحمله مركب مهربين هولنديين إلى كابو تيرايا، على الساحل الشرقي لليابان. وفوق الحصان، مستخدماً الطرقات الفرعية، اجتاز مقاطعات إيشيكاوا، توياما، نيبغانا، ودخل إلى مقاطعة فوكوشيما. عندما وصل إلى شيراكاوا، وجد أن نصف المدينة مدمرة، وأن حامية من جنود الحكومة كانت تُخيم بين الأطلال. استدار على المدينة من ناحية الشرق وخلال خمسة أيام، انتظر سدى وصول مبعوث هاراكي. عند فجر اليوم

السادس، رحل إلى الهضاب باتجاه الشمال. لم يكن يملك سوى بعض الخرائط التقريبية وما تبقى له من ذكريات. تاه لعدة أيام، إلى أن تعرّف على بحيرة، ومن ثم على غابة ومن ثم على طريق. عند طرف الشارع، وجد قرية هاراكبي، محروقة بأكملها: البيوت، المنازل، كل شيء.

لم يكن هناك أي شيء.

ما من روح حية.

بقي هيرفيه جونكور جامداً، ناظراً إلى الجمرة الكبيرة المشتعلة. كان هناك خلفه طرق يصل طوله إلى ٨٠٠٠ كلم. وأمامه، لا شيء. فجأة، شاهد ما كان يعتقد أنه غير مرئي. نهاية العالم.

بقي هيرفيه جونكور لساعات وسط الخراب. لم يستطع أن يرحل بالرغم من معرفته أن كل ساعة، يضيعها هنا، قد تعني الكارثة، بالنسبة إليه وبالنسبة إلى «لافيل ديو» بأسرها: لم تكن البويضات بحوزته وحتى إن وجدها، فليس أمامه سوى شهرين كي يجتاز العالم قبل أن تنغلق على نفسها، لتتحول إلى كومة من اليرقانات عديمة الفائدة. لو تأخر يوماً واحداً إضافياً لعنى ذلك النهاية حتماً. كان يعرف هذا، ومع ذلك، لم يكن يستطيع الرحيل. بقي هناك إذا، حتى اللحظة التي حدث فيها شيء مدهش لا يصدق: من العدم، انبثق فجأة شاب، مرتدياً ثوباً رثاً، يسير الهوينا، حدق في عينيّ الغريب اللتين يملكهما الخوف. لم يتحرك هيرفيه جونكور. تقدم الصبي خطوات إضافية وتوقف. بقيا في مكانهما، ينظران إلى بعضهما البعض، حيث ان عدة أمتار تفصلهما. فجأة استل الصبي، شيئاً من تحت ثيابه الرثة، اقترب من هيرفيه جونكور مرتجفاً من الخوف، وأعطاه إياه. كان كف قفاز. عاد هيرفيه جونكور ليرى ضفة البحيرة، وثوباً مائلاً إلى اللون البرتقالي ملقى على الأرض، كما المويجات الصغيرة

التي كانت تدفع المياه إلى الحافة، كأنها كانت مرسلة إلى هنا، من مكان بعيد. أمسك بالكف وابتسم للصبى.

- إنه أنا، الفرنسي... رجل الحرير، الفرنسي، أتفهم؟ انه أنا.

- فرنسي...

كانت عيناه لامعتين، إلا أنه يضحك. بدأ بالحديث، بالصراخ تقريباً، وبالركض، مشيراً إلى هيرفيه جونكور أن يتبعه. اختفى فوق درب كان يخترق الغابة، باتجاه الجبال.

لم يتحرك هيرفيه جونكور من مكانه. أدار القفاز بين يديه، كما لو أنه كان الشيء الوحيد الذي بقي له من عالم ابتلع. يعرف أن الوقت أصبح متأخراً جداً الآن. وانه لم يكن يملك الخيار.

نهض ببطء، اقترب من حصانه. امتطى السرج ثم قام بحركة غريبة بعض الشيء. شدّ كعبيّ حذائه إلى بطن البهيمة وذهب، باتجاه الغابة، خلف الصبى، إلى الجانب الآخر من نهاية العالم.

سافرا لعدة أيام، اتجها صوب الشمال، عبر الجبال. كان هيرفيه جونكور يجهل إلى أين يتجهان، إلا أنه ترك للصبى أن يقوده، من دون أن يحاول سؤاله. التقيا بقريتين، كان سكانهما يختبئون في منازلهم. أطلقت النساء سيقانها للريح. كان الصبى يلهو كمجنون، بالصراخ خلف أشياء غير مفهومة. لم يكن عمره يتجاوز الرابعة عشرة. لم يكن يتوقف عن النفخ في آلة من القصب، تعيد ترديد صراخ جميع طيور العالم. بدا وكأنه يعيش لحظتها أجمل لحظات حياته.

في اليوم الخامس، وصلا إلى أعلى ممرٍ جبلي. أشار الصبى، إلى نقطة أمامهما، على الطريق الذي كان يصل إلى الوادي. استل هيرفيه جونكور منظاره، وما رآه كان عبارة عن مركب: رجال مسلحون، نساء وأطفال، عربات، بهائم. قرية بأكملها فوق الطرقات. وعلى حصان، رأى هاراكي مرتدياً ثياباً سوداء، تتأرجح خلفه مَحْفَة^(١) مغلقة من جوانبها الأربعة بقماشة ذات ألوان فاقعة.

(١) كرسي مغطى بحمله رجلان كان يُستعمل للنقل.

نزل الصبي الصغير من على حصانه، قال شيئاً، وأطلق ساقيه للريح. قبل أن يختفي خلف الأشجار، استدار وبقي جامداً للحظة، باحثاً عن إيماءة ليقول إنها كانت رحلة جميلة.

- لقد كانت رحلة جميلة جميلة جداً، صرخ هيرفيه جونكور بالقول.

طوال اليوم، تابع هيرفيه جونكور، القافلة من بعيد. وبعد أن رآها توقفت بعد هبوط الليل، تابع تقدمه على الطريق، إلى أن جاء رجلان مسلحان لمقابلته، فأخذا منه حصانه وحقائبه، وقاداه إلى خيمة. انتظر طويلاً، ثم جاء هاراكى. لم يلق عليه التحية. حتى أنه لم يجلس.

- كيف وصلت إلى هنا أيها الفرنسي؟

لم يجبه هيرفيه جونكور.

- سألتك من قارك إلى هنا.

صمت.

- لا شيء يفيدك هنا. لا شيء سوى الحرب. كما انها ليست

حربك. ارحل من هنا.

أخرج هيرفيه جونكور صرة جلدية صغيرة، فتحها وأفرغ
محتواها على الأرض. رقائق ذهبية.

- الحرب لعبة تكلف غالياً. أنت بحاجة إليّ وأنا بحاجة
إليك.

لم ينظر هاراكي حتى للذهب المنتشر فوق الرمال. أدار ظهره
وذهب.

أمضى هيرفيه جونكور ليلته على أطراف المخيم. لم يحدثه أحد، وكان أحداً لم يره. كان الناس ينامون على الأرض، قرب النيران. لم تكن هناك سوى خيمتين. بالقرب من إحداها، رأى هيرفيه جونكور المحفّة فارغة: على زواياها الأربعة، علقت أقفاص صغيرة فيها عصافير، وعلى زردات الأقفاص تتدلى أجراس ذهبية صغيرة. كانت ترنّ، بنعومة، في نسيم الليل.

حينما استيقظ رأى القرية حوله تستعد للمسير مجدداً. لم تكن هناك الخيمتين، بيد أن المحفة لا تزال في مكانها، مفتوحة. كان الجمع يصعد إلى العربات، بصمت. نهض، نظر حوله مطولاً، إلا أن العيون التي كانت تلتقي بعينه، كانت كلها ذات سمات شرقية، سرعان ما تخفض نظراتها. شاهد رجالاً مسلحين وأطفالاً لا يبكون. رأى الوجوه الصامته للناس الهاربين وشاهد شجرة، على حافة الطريق. والصبى الذي قاده إلى هنا، مشنوقاً على أحد أغصانها.

اقترب هيرفيه جونكور، وبقي أمامه لحظة، ينظر إليه، كأنه منوم. من ثم فك عقدة الحبل المربوطة بالشجرة، فأمسك بجسد الصبى، ومدده على الأرض. قرفص بالقرب منه. لم ينجح في إبعاد نظرتة عن وجهه، لذلك لم ير القرية وهي تسير مجدداً، لكنه سمع فقط، وكأنها من بعيد، ضجة هذا الطواف الذي كان يلامسه، وهو يصعد الطريق. لم يرفع عينيه، حتى حين سمع صوت هاراكي، على مقربة منه وهو يقول:

- اليابان بلد قديم جداً، أتعرف ذلك؟ وقانونه قديم جداً

أيضاً: يقال إن هناك ١٢ جريمة يسمح فيها بأن يحكم على رجل بالإعدام. إحدى هذه الجرائم قبوله حمل رسالة حب لسيدته.

لم يرفع هيرفيه جونكور عينيه عن وجه الصبي القتيل.

- لم يكن يحمل أي رسالة حب.

- إنه - هو - الذي كان رسالة الحب.

شعر هيرفيه جونكور بشيء على رقبته، يدفعه لكي يحني رأسه على الأرض.

- إنها بندقية أيها الفرنسي، إياك أن تطرف بعينيك.

لم يفهم هيرفيه جونكور ما جرى له في الحال. لكنه سمع، في ما بعد، وفي ضجة هذا الطواف الهارب، النغمة المذهبة لآلاف الأجراس الصغيرة التي كانت تقترب، رويداً رويداً، بالرغم من أن أمام عينيه لم يكن هناك سوى هذه الأرض السوداء التي كان يتخيلها، وهذه المحفة، المتأرجحة كما رقاص ساعة. كان يراها، تقريباً، وهي تصعد الطريق، متراً وراء آخر، وتقترب منه، ببطء، لكن بخطى واثقة، محمولة بهذه الأنغام التي تقوى شيئاً فشيئاً، بقوة لم تعد تحتل، وبشكل أقرب أكثر فأكثر، قريبة من أن تلمسه. ضجة ذهبية، هنا، أمامه، بالضبط أمامه الآن، في هذه اللحظة بالذات، أمامه.

رفع هيرفيه جونكور رأسه .

أقمشة رائعة، أقمشة حريرية، كلها حول المحفة، آلاف الألوان، برتقالي، أبيض، أمغر، ذهبي، ما من فتحة في هذا العن المدهش، فقط ضجيج هذه الألوان المتموجة في الهواء، التي لا تخترق، الأخف من لا شيء .

لم يسمع هيرفيه جونكور انفجاراً سرق حياته . شعر بهذه الأنغام تبعد، بسببانة البندقية وهي تنتحي، وصوت هاراكي يقول بهدوء :

- ارحل من هنا أيها الفرنسي، ولا تعد أبداً .

تابعنا على تيليجرام اضغطا هنا

تابعنا على فيسبوك اضغطا هنا

(٤٩)

وحده الصمت، على الطريق. جسد صبي شاب، على
الأرض. رجل جاث. حتى آخر أضواء النهار.

لزم هيرفيه جونكور ١١ يوما كي يصل إلى يوكوهاما. رشا موظفاً رسمياً يابانياً وتزود بـ ١٦ صندوقاً مليئاً بالبويضات مصدرها جنوب الجزيرة. لفها كلها بالشراشف الحريرية ووضعها داخل أربع علب خشبية، مستديرة. نجح في الإبحار إلى القارة الأوروبية، وعند أول أيام شهر آذار وصل إلى الساحل الروسي. اختار الدرب المؤدي أكثر إلى الشمال، إذ كان يبحث عن الصقيع كي يجمد تفتح البويضات ويطيل الوقت المتبقي على خروجها. اجتاز بخطى حثيثة ٤ الاف كلم من سيبيريا، قطع جبال الأورال ووصل إلى سان بطرسبرغ. بسعر غال، اشترى قنطارات من الثلج، وحملها مع بعض البويضات، في قعر سفينة للشحن متوجهة إلى هامبورغ. وصل بعد ستة أيام. حمل صناديقه الخشبية الأربعة، المستديرة، وصعد إلى قطار كان متوجها نحو الجنوب. بعد ١١ ساعة من السفر، وبالضبط عند مخرج قرية تدعى إيبيرفيلد، توقف القطار ليتزود بالماء. نظر هيرفيه جونكور حوله.

ثمة شمس صيفية كانت تلمع، فوق خضرة الحقول كما فوق

العالم بأسره. جلس مفاوض روسي قبالتة: كان ينزع حذاءه ويرُوح بأخر صفحات جريدة باللغة الألمانية. نظر إليه هيرفيه جونكور. رأى العرق على قميصه والنقاط تتلألأ على جبهته وعنقه. قال الروسي شيئاً وهو يضحك. ابتسم له هيرفيه جونكور، نهض، أخذ حقائبه ونزل من القطار. عاد ليصعد في قاطرته الأخيرة، كانت عربية بضائع تنقل السمك واللحوم المحفوظة في الثلج. كانت المياه تتسرب كما لو أنها تتسرب من وعاء مثقوب بألاف الشظايا. فتح باب المقطورة، وصعد إلى المصطبة وتناول واحدة بعد الأخرى، علبه الخشبية المستديرة، وحملها إلى الخارج ليضعها أرضاً، بجانب خط السكة الحديد. عاد وأغلق الباب وانتظر. حين جهز القطار لمعاودة المسير، نودي عليه وأرسل تحية. شاهد القطار وهو يبتعد، ومن ثم يختفي. انتظر حتى لم يعد يسمع أي ضجة. انحنى على إحدى العلب، نزع عنها سدادتها وفتحها. عالج العلب الأخرى بالطريقة ذاتها، ببطء، بعناية.

ملايين اليرقانات النافقة.

كان ذلك يوم السادس من أيار من العام ١٨٦٥.

وصل هيرفيه جونكور إلى «لافيل ديو» بعد تسعة أيام. هيلانة، زوجته، رأت من بعيد العربة وهي تصعد ممراً المنزل الظليل. قالت لنفسها بأن عليها أن لا تبكي وبأن لا تهرب.

نزلت حتى باب المدخل، فتحتة وانتظرت على العتبة.

حين وصل هيرفيه جونكور بالقرب منها، ابتسمت. ضمها بشدة بين ذراعيه وقال لها بهدوء.

- ابقى معي، أطلب منك ذلك.

في الليل سهر لساعة متأخرة، جلسا على العشب أمام المنزل، الواحد قرب الآخر. تحدثت هيلانة عن لافيل ديو، وعن كل تلك الشهور الماضية التي انتظرت فيها، كما عن هذه الأيام الأخيرة الرهيبة.

- لقد كنت ميتاً.

قالت.

- ولم يعد هناك أي شيء جميل في العالم.

في مزارع لا فيل ديو، كان الناس ينظرون إلى أشجار التوت المغطاة بالأوراق وينتظرون خرابهم. كان بالدابيو قد وجد مؤونة من البويضات، إلا أن اليرقانات كانت تموت ما إن تخرج إلى النور. بالكاد، كان الحرير الخام، الذي تم الحصول عليه من اليرقانات القليلة التي لم تنفق، يستطيع أن يشغل مصنعين من المصانع السبعة الموجودة هناك.

- أليست لديك فكرة؟ سأل بالدابيو.

- فكرة واحدة، أجب هيرفيه جونكور.

أعلمهم في اليوم التالي أن في نيته، هذا الصيف، أن يبدأ ببناء منتزه حول منزله. استخدم رجالا ونساء من القرية، بالعشرات. قطعوا أشجار الهضبة، ثلموا شكلها، نظفوا المنحدر الذي يصل إلى الوادي، بالأشجار والأسوار. رسموا على الرمل متاهات خفيفة وشفافة. وبالورود - ذات الأنواع كلها - صنعوا حدائق كانت تتفتح مثل تخوم - فجأة - في قلب أيكات صغيرة من «السندر». جرّوا المياه، من البحيرة، وجعلوها تتدفق من نبع إلى نبع، حتى الطرف الغربي من الحديقة، حيث شكلت بحيرة

صغيرة، محاطة بالمراعي. إلى الجنوب، ووسط أشجار الحامض
والزيتون، بنوا مَظيرة كبيرة مصنوعة من الخشب والحديد، حتى
قيل أنها زركشة معلقة في الهواء.

عملوا لمدة أربعة أشهر. وفي نهاية شهر أيلول، كان المنتزه
جاهزاً. لا أحد، في «لافيل ديو»، كان قد شاهد شيئاً مماثلاً.
كان الناس يقولون أن هيرفيه جونكور قد بدد رأسماله بأكمله.
قالوا أيضاً، إنه عاد مختلفاً وربما مريضاً من اليابان. قالوا إنه باع
البويضات إلى الإيطاليين وبأنه يملك الآن ثروة من الذهب تنتظره
في مصارف باريس. وقالوا إنه لو لم يكن المنتزه لماتوا جميعاً من
الجوع، هذه السنة. قالوا بأنه كان نصاباً. قالوا بأنه كان قديساً.
البعض قال: به خطب ما، مثل لعنة تلاحقه.

كل ما قاله هيرفيه جونكور، عن سفره، بأن البويضات تفتحت، في قرية بالقرب من مدينة كولونيا، وبأنها تدعى إيبيرفيلد.

بعد ٤ أشهر و١٣ يوماً من عودته، جاء بالدايو ليجلس أمامه، على ضفة البحيرة، عند الطرف الغربي من المنتزه، ليقول له:
- في جميع الأحوال، عليك ان تروي إلى أحد، ذات يوم، الحقيقة.

قال له ذلك بهدوء، بجهد، إذ أنه لم يكن يؤمن أن الحقيقة، تستطيع حقاً أن تخدم في شيء.
نظر هيرفيه جونكور إلى المنتزه.

كان فصل الخريف، وثمة ضوء غاش، في جميع الأنحاء.
- في المرة الأولى التي شاهدت فيها هاراكي، كان يرتدي ثياباً غامقة، كان جالساً، وقدماه متشابكتان، ثابتاً في زاوية غرفة.
بالقرب منه، ثمة امرأة ممدودة، ورأسها على ركبتيه. لم يكن شكل عينيها شرقياً. ووجهها، وجه فتاة شابة.

استمع بالدابيو، بصمت، حتى النهاية، حتى قصة قطار
إيبيرفيلد.

لم يكن يفكر بشيء.

كان يستمع.

وجد صعوبة في الاستماع، عند النهاية، قال هيرفيه جونكور
بهدوء:

- لم أسمع صوتها مطلقاً.

وبعد لحظة:

- إنه أمر غريب.

بهدوء:

- الموت من الحنين لشيء لن نحياه مجدداً أبداً.

صعدا إلى المنتزه وهما يسيران جنباً إلى جنب. الشيء الوحيد

الذي قاله بالدابيو كان:

- لماذا صنع إبليس هذا البرد القارس.

قال ذلك، في لحظة ما.

في بداية السنة الجديدة - العام ١٨٦٦ - سمحت اليابان رسمياً بتصدير بويضات دود القز.

خلال العشرية التالية، وصل استيراد فرنسا من البويضات اليابانية إلى عشرة ملايين فرنك.

بدءاً من العام ١٨٦٩، ومع شق قناة السويس، لم يعد الذهاب إلى اليابان يتطلب أكثر من عشرين يوم سفر. أما العودة فتستغرق زمناً أقل.

تم اختراع الحرير الاصطناعي العام ١٨٨٤ من قبل فرنسي يدعى شاردونيه.

بعد ستة أشهر من عودته إلى «لافيل ديو»، استلم هيرفيه جونكور، عبر البريد، مغلفاً ذا لون خردلي. عندما فضه، وجد فيه سبعة أوراق، مغطاة بكتابة كثيفة وهندسية، حبر أسود ورموز يابانية. ما عدا الاسم والعنوان على المغلف، ما من كلمة واحدة مكتوبة بالحروف الغربية. وبحسب الطوابع، فإن الرسالة تبدو مرسله من أوستاند.

تصفح هيرفيه جونكور الرسالة، مخصص فيها طويلاً. بدا الأمر أشبه بفهرس بصمات عصافير صغيرة، أرسلت بجنون دقيق. كان من المدهش الاعتقاد بأن الأمر في الواقع مجرد إشارات، رماد صوت محروق.

خلال أسابيع، احتفظ هيرفيه جونكور بالرسالة معه، مطوية إلى نصفين، وموضوعة في جيبه. وحين كان يبدل ثيابه، كان يضع الرسالة في البدلة الجديدة. لم يفتحها مطلقاً لينظر فيها. من وقت إلى آخر، كان ينقلها بين أصابعه، بينما هو يتحدث إلى مزارع، أو بينما كان ينتظر حلول ساعة العشاء وهو جالس إلى الشرفة. ذات مساء، بدأ بتفحصها على ضوء المصباح، في مكتبه. على ما يبدو، كانت بصمات هذه العصافير الدقيقة تتكلم، بصوت مخنوق. كانت تقول بالتأكيد شيئاً عديم المعنى، أو ربما، شيئاً جديراً بأن يشوش وجوداً بأكمله: من المستحيل عليه معرفة ذلك، وهذه الفكرة كانت تروق لهيرفيه جونكور. سمع هيلانة تصل. وضع الرسالة على الطاولة. اقتربت، وكما كل مساء، قبل أن تنسحب إلى غرفتها، رغبت في تقبيله. حين انحنت باتجاهه، فتح قميص نومها بشكل خفيف، من على صدرها. رأى هيرفيه جونكور أنها لم تكن ترتدي شيئاً تحته، وبأن نهديها كانا صغيرين، ذا بياض طاهر، مثل نهدي فتاة شابة.

خلال أربعة أيام، استمر في عيش حياته، من دون أي تعديل
من عاداته الخدرة. في صباح اليوم الخامس، وضع طقماً رمادياً
ورحل إلى نيم. قال إنه سيعود قبل حلول المساء.

١٢ شارع موسكا، كل شيء أشبه بما كان عليه قبل ثلاث سنوات. لم يكن الاحتفال قد انتهى. جميع الفتيات شابات وفرنسيات. لا يزال عازف البيانو، يعزف، خفية، بعض المقطوعات ذات اللحن الروسي. ربما كانت الشيخوخة، وربما ألم قدر، إذ عند نهاية كل مقطوعة، لم يكن يمرر يده اليمنى في شعره، كما لم يعد يهمس، بهدوء.

ها هو الأمر.

يبقى صامتاً، ينظر إلى يديه، شارد الذهن.

استقبلته السيدة بلانش من دون أن تنبس بكلمة . شعرها الأسود، يلمع، ووجهها الشرقي، متكامل. ورود صغيرة زرقاء في أصابعها، كأنها خواتم. ثوب طويل، أبيض، شفاف تقريباً، وقدماهما حافيتان.

جلس هيرفيه جونكور قبالتها. أخرج الرسالة من جيبه.

- هل تتذكريني؟

أومأت السيدة بلانش بإشارة دقيقة من رأسها.

- إنني بحاجة إليك من جديد.

مدّ إليها الرسالة. ما من سبب يدفعها لتقوم بذلك، بيد أنها استلمتها وفتحتها. نظرت إلى الأوراق السبعة، الواحدة بعد الأخرى، ثم رفعت عينيها نحو هيرفيه جونكور.

- لا أحب هذه اللغة أيها السيد. أريد أن أنساها، وأريد أن أنسى ذلك البلد، وحياتي هناك والباقي كله.

بقي هيرفيه جونكور بلا حراك ويداه على مسندي الكنبه.

- سأقرأ هذه الرسالة لك. سأفعل ذلك ولا أريد مالأً. لكنني أريد وعداً: لا تعد إلى هنا مطلقاً لتطلب مني ذلك.

- أعدك بذلك سيدتي .

نظرت في عينيه جيداً، ثم خفضت نظرها على الصفحة الأولى من الرسالة، وكانت من ورق الأرز ومكتوب عليها بالحبر الأسود.

- سيدي المعشوق

قالت

- لا تخشى شيئاً، لا تتحرك، احتفظ بالصمت، لن يراك أحد.

«ابقى كما أنت، أرغب في النظر إليك، كم نظرت إليك، لكنك لم تكن لي، إلا أنك لي حالياً، لي أنا، لا تقترب، أرجوك، ابقى كما أنت، لدينا ليلة لنا وحدنا وأرغب في النظر إليك، ولم أرك يوماً مثلما أنت عليه الآن. جسدك لي، جلدك، أغلق عينيك وداعب نفسك، أرجوك...».

قالت السيدة بلانش، بينما كان هيرفيه جونكور يستمع.

«لا تفتح عينيك، ان استطعت ذلك، داعب نفسك، يداك جميلتان جداً، حلمت بهما مرات عدة لدرجة أنني أرغب في رؤيتهما حالياً. أحب مشاهدتهما على هذه الحالة، على جسدك، استمر أرجوك، لا تفتح عينيك، أنا هنا، لا أحد يستطيع رؤيتنا فأنا قريبك، داعب نفسك يا سيدي المحبوب، داعب عضوك، أرجوك بهدوء.

توقفت، تابعي أرجوك، قال.

«إنها جميلة، يدك، وهي على عضوك، لا تتوقف. أحب مشاهدتها كما مشاهدته، يا سيدي المعشوق، لا تفتح عينيك، ليس بعد: عليك أن لا تخشى شيئاً، أنا قريبك: أسمعني؟ أنا

هنا، لألامسك، إنه حرير، أتشعر بذلك؟ إنه حرير ثوبي، لا تفتح عينيك وستفوز بجسدي.

قالت وهي تقرأ بنعومة، بصوت امرأة - طفلة،

«ستفوز بشفتي، حين ألمسك للمرة الأولى، سيكون ذلك، بشفتي، لن تعرف أين، في لحظة معينة ستشعر بحرارة شفتي، عليك، لن تعرف أين إن لم تفتح عينيك، لا تفتحها، ستشعر بثوبي، لن تعرف أين، فجأة.

كان يستمع وهو جامد، من جيب طقمه الرمادي الصغير، يظهر منديل أبيض، نظيف،

«ربما ستكون في عينيك، سأضع فمي على جفنيك وأهدابك، ستشعر بالحرارة تتغلغل داخل رأسك، وشفتي في عينيك، في الداخل، أو ربما ستكون على عضوك، سأضع شفتي، هنا، وسأفتحها وأنا أهبط شيئاً فشيئاً.

قالت ورأسها محني على الأوراق، بينما كانت تلمس عنقها بطرف أصابعها، على مهل.

«سأترك عضوك يفتح لي فمي، سأتركه يدخل بين شفتي، لينعصر على لساني، وسيسيل لعابي، على امتداد جسدي، حتى يدك، قبلي ويدك، سيمتزجان معاً، على عضوك،

كان يستمع، مثبتاً بصره على إطار فضي اللون، فارغ، معلق على الجدار،

«ومن ثم في النهاية سأقبل قلبك، لأنني أريدك، سأعضر الجلد الذي يخفق على قلبك، لأنني أرغب فيك، وحين سيصبح قلبك تحت شفتي ستصبح لي، حقاً، مع فمي. في قلبك ستكون لي، للأبد، إن لم تصدقني، افتح عينيك إذاً يا سيدي المعشوق وانظر إليّ، إنني هنا، هل يستطيع أحد أن يمسح هذه اللحظة؛ جسدي الذي لن يصفه الحرير مجدداً، يداك اللتان تلمسانه، عيناك اللتان تنظران إليه،

قالت، وانحنت باتجاه المصباح، كان النور يضيء الأوراق ويمر عبر ثوبها الشفاف.

«أصابعك في فرجي، لسانك على شفتي، أنت الذي تنزلق تحتي، وتمسك بوركي وترفعني، تتركني أنزلق على عضوك، على مهل، أيستطيع أحد أن يمحو ذلك، وأنت الذي في داخلي تتحرك ببطء، يداك على وجهي، أصابعك في فمي، اللذة في عينيك، صوتك، يتحرك ببطء ويشعرني ذلك بالألم تقريباً، لذتي، صوتي»

كان يستمع، استدار هنيهة لينظر إليها، يراها، رغب في أن يخفض بصره لكنه لم يستطع،

«جسدي على جسديك، ظهرك الذي يرفعني، ذراعاك اللتان لا تتركاني أرحل، الضربات في داخلي، العنف والنعومة، أرى عينيك تبحثان عن عيني، تريدان أن تعرفا، لغاية أن تشعراني بالألم، إلى متى تريد ذلك، يا سيدي المعشوق، لا نهاية لذلك، لا يستطيع أن ينتهي، ألا ترى ذلك؟ لا أحد، أبداً، يستطيع أن يمحو هذه اللحظة، للأبد ستؤرجح رأسك إلى الخلف، صارخاً، وللأبد سأغلق عيني تاركة دموعي تنفصل على أهدابي، صوتي في صوتك، عنقك، في تركبي مضمومة، لا زمن لنهرب من ذلك، ولا قوة كي تقاوم، على هذه اللحظة أن تكون، هذه اللحظة موجودة، صدقني، يا سيدي المعشوق، وستكون موجودة هذه اللحظة، الآن وللأبد، ستكون، حتى النهاية».

قالت في صوت خافت، من ثم توقفت.

لم تعد هناك أي إشارة، على الورقة التي كانت تحملها بيدها، الورقة الأخيرة. لكن حين أدارتها كي تضعها، رأت على الصفحة الخلفية، بعض الإشارات الإضافية، المرصوفة بعناية، بالحبر الأسود في وسط الصفحة البيضاء. رفعت نظرتها نحو هيرفيه جونكور. كانت عيناه تنظران إليها، وفهمت بأنهما عينيان رائعتان. نظرت إلى الورقة مجدداً.

- لن نلتقي مجدداً، يا سيدي،

قالت

«ما كان من أجلنا، قمنا به، فأنت تعرفه، صدقني: قمنا به للأبد. احفظ حياتك بمنأى مني. ولا تتردد لحظة، إن كان ذلك مفيداً لسعادتك، في نسيان هذه المرأة التي تقول لك، الآن، ويا للآسف، وداعاً».

استمرت تنظر إلى الورقة لعدة لحظات أخرى، ثم وضعتها على الأوراق الأخرى، إلى جانبها، على طاولة صغيرة خشبية فاتحة اللون. لم يتحرك هيرفيه جونكور، لكنه أدار رأسه وخفض عينيه. نظر بثبات إلى ثنية سرواله المتكامل، المرسوم بالكاد، على ساقه اليمنى، من ثنية فخذه وحتى الركبة، الكامل.

نهضت السيدة بلانش، انحنت على المصباح وأطفأته. لم يعد في الغرفة إلا القليل من الضوء الذي - وعبر النافذة - كان يصل من الصالة. اقتربت من هيرفيه جونكور، نزعت من اصبعها خاتماً ذات ورود زرقاء صغيرة ووضعتة إلى جانبه. ثم اجتازت الغرفة، وفتحت باباً صغيراً مدهوناً، مخفياً في الحائط، واختفت تاركة إياه مغلقاً نصف إغلاقاً، خلفها.

بقي هيرفيه جونكور طويلاً في هذا النور الغريب، مديراً بين

أصابه خاتماً طويلاً ذا ورود زرقاء صغيرة. من الصالة، كانت
تصل تقريباً أنغام بيانو متعبة: كانت تخفف وطأة الزمن، وتجد
صعوبة في التعرف إليها.

نهض في النهاية، اقترب من الطاولة الصغيرة، ذات اللون
الخشبي الفاتح، جمع أوراق الأرز السبعة، عبر الغرفة، مرّ من
دون أن يلتفت أمام الباب الصغير المغلق نصف إغلاقه ورحل.

أمضى هيرفيه جونكور السنوات التالية، مختاراً لنفسه، الوجود الشفاف، لرجل لم يعد بحاجة إلى شيء. كانت أيامه تسيل تحت وصاية عاطفية متزنة. في «لافيل ديو»، عاد الناس يحترمونه مجدداً، لأنه تراءى لهم أنهم يشاهدون فيه طريقة صائبة في الوجود في قلب العالم. قالوا له إنه كان هكذا في شبابه، قبل سفره إلى اليابان.

مع زوجته اعتاد، كل سنة، أن يقوم برحلة صغيرة. ذهب إلى نابولي، روما، مدريد، ميونخ، لندن. ذات عام، أطالا الرحلة حتى براغ، حيث تراءى لهما كل شيء على انه مسرح. كانا يسافران، من دون مواعيد ومن دون برنامج. كل شيء كان يسحرهما وفي السر. كان سبب سعادتهما. عندما يشعران بالحنين إلى الصمت، يعودان إلى «لافيل ديو».

لو سألناه، لأجاب أنهما سيستمران في العيش على هذا المنوال للأبد. كانت في داخله طمأنينة البشر المدعومة، الذين يشعرون بأنهم في أمكنتهم. أحياناً، في أيام الرياح، كان يجتاز البستان وصولاً إلى البحيرة، ويبقى خلال ساعات، على الضفة،

وهو يراقب سطح المياه وهي تتجعد، مشكلة وجوها غير متوقعة، تلمع فجأة، في جميع الاتجاهات. لم يكن هناك سوى ريح واحدة. لكن فوق مرآة الحياة هذه، يبدو كأنها ألف ريح تنفخ، في جميع الاتجاهات. الأمر أشبه بعرض. يتعذر شرحه وخفيف.

أحيانا في أيام الريح، كان هيرفيه جونكور يهبط من منزله حتى البحيرة ويمضي ساعات وهو يراقبها، لأنه كان يتراءى له رؤية المشهد الخفيف والمتعذر شرحه الذي يرسم على المياه، ما كانت عليه حياته.

في السادس عشر من حزيران العام ١٨٧١، وفي الصلاة الخلفية لمقهى فردان، وقبل الظهر بقليل، نجح الأكتع في أربع ضربات لولبية مرتدة إلى الورااء بطريقة مدهشة. بقي بالدابيو منحنيًا فوق الطاولة، يد خلف ظهره، والأخرى تمسك بعصا البليار، الجامدة.

- هكذا إذا.

استقام، وضع عصا البليار وخرج من دون إلقاء التحية. بعد ثلاثة أيام، رحل، بعد أن أهدى معلمي النسيج لهيرفيه جونكور.

- لم أعد أريد أن أسمع شيئاً عن الحرير يا بالدابيو.

- بعهما أيها الأحمق.

لم ينجح أحد في جعله يبصق اسم المكان الذي وضعه في فكره والذي سيرحل إليه. أضف إلى ماذا سيفعل. قال فقط شيئاً بخصوص القديسة أنيس، لم يفهمه أحد في الواقع.

في الصباح الذي رحل فيه، اصطحبه هيرفيه جونكور، برفقة هيلانة، حتى محطة سكة حديد أفينيون. كانت معه حقيبة

واحدة، وهذا أمر اضافي، من المتعذر شرحه. حين شاهد
القطار، المتوقف على طول الرصيف، وضع حقيبته.

- في ما مضى عرفت شخصاً بنى سكة حديد من أجله فقط.
قال.

- والأجمل من هذا، انه بناها بشكل مستقيم، لمئات
الكيلومترات، من دون انزياح واحد. كان هناك سبب لذلك، بيد
أنني نسيته. دائماً ننسى الأسباب. على كل: الوداع.
لم تكن الأحاديث الجدّية مصنوعة من أجله حقاً. والوداع هو
حديث جدي.

شاهداه وهو يبتعد، حقيبته وهو، إلى الأبد.
حينذاك قامت هيلانة بشيء غريب. ابتعدت عن هيرفيه
جونكور وركضت خلف بالدابيو، كي تمسك به، ولتعصره بين
ذراعيها، بقوة، وانفجرت في البكاء، بينما كانت تضمه.
لم تكن تبكي هيلانة أبداً.

باع هيرفيه جونكور المعلمين بسعر زهيد إلى ميشال لاريو،
وهو رجل طيب، لعب الدومينو لمدة عشرين سنة، كل مساء
سبت، مع بالدابيو، وكان يخسر في كل مرّة، بمثابرة رصينة.
كان لديه، ثلاث بنات. فلورانس وسيلفي. أما الثالثة: أنيس.

بعد ثلاث سنوات، وخلال شتاء ١٨٧٤، سقطت هيلانة مريضة من جزاء حمى لم يستطع أي طبيب شرحها أو معالجتها. توفيت في بداية شهر آذار، ذات يوم مطير.

لمرافقتها بصمت، في الطريق التي تقود إلى المقبرة، كانت كل مدينة لافيل ديو موجودة: لأنها كانت امرأة مرهفة لم تثر الألم حولها.

حفر هيرفيه جونكور على قبرها كلمة واحدة.
واحسرتاه.

شكر الجميع، ردد ألف مرة أنه ليس بحاجة إلى شيء، وعاد إلى منزله. ولا مرة بدا له المنزل كبيراً إلى هذه الدرجة، مثلما لم يبد له مصيره، ولا في أي مرة أيضاً، غير منطقي.

وبما أن اليأس كان إفراطاً لم يعرفه قط، انحنى على ما تبقى له من حياة، ليعاود الاهتمام بها، بعناد بستاني راسخ يعمل، في الصباح الذي يلي العاصفة.

بعد شهرين و ١١ يوماً من موت هيلانة، وجد هيرفيه جونكور نفسه ذاهباً إلى المقبرة، ليكتشف، إلى جانب الورود التي كان يضعها كل أسبوع على قبر زوجته، خاتماً مصنوعاً من ورود زرقاء صغيرة. انحنى ليتفحصها وبقي طويلاً على هذه الوضعية التي، ومن بعيد، لم تكن لتبدو، بعيون شهود متوقعين، إلا وضعية متفردة، ان لم تكن سخيفة. بعد أن عاد إلى منزله، لم يخرج ليعمل في البستان، كما اعتاد ذلك، لكنه بقي في مكتبه، يفكر، لم يفعل شيئاً آخر، لعدة أيام. التفكير.

شارع موسكا، وعند الرقم ١٢، وجد محترف خياط. قيل له إن السيدة بلانش لم تعد موجودة من سنوات. نجح في معرفة انها انتقلت إلى باريس، حيث اصبحت عشيقة رجل مهم جداً، ربما كان سياسياً.

ذهب هيرفيه جونكور إلى باريس.

أمضى خمسة أيام ليكتشف أين كانت تسكن. بعث إليها برسالة، طالباً منها أن تستقبله. أجابته انها تنتظره في اليوم التالي، عند الرابعة. على مواعده بدقة، صعد إلى الطابق الثاني من مبنى فخم يقع في جادة الكبوشيين. فتحت له خادمة الباب. أدخلته إلى الصالة ورجته أن يجلس. وصلت السيدة بلانش، مرتدية ثوباً أنيقاً جداً وفرنسياً جداً. كان شعرها يتساقط على كتفيها، كما تتطلب الموضة الفرنسية. لم تكن تضع خواتم الورود الزرقاء، في أصابعها. جلست مقابل هيرفيه جونكور، من دون ان تقول كلمة وانتظرته.

نظر إليها في عينيها، لكن كما يفعل الطفل.

- هو أنت من كتب هذه الرسالة، أليس كذلك؟

قال .

- طلبت منك هيلانة أن تكتبها، وفعلت ذلك .

بقيت السيدة بلانش جامدة، من دون أن تخفض عينيها، من دون أن تبدي أقل دهشة،

ثم قالت

- لست أنا من كتبها .

صمت .

- هذه الرسالة، هيلانة من كتبها .

صمت .

- كانت قد كتبتها حين جاءت عندي، طلبت مني أن أنقلها، باليابانية، ففعلت ذلك . إنها الحقيقة .

فهم هيرفيه جونكور في هذه اللحظة، بأنه سيستمر في سماع هذه الكلمات طوال حياته . نهض، لكنه بقي جامداً، واقفاً، كما لو أنه، فجأة، نسي أين عليه أن يذهب . وصله صوت السيدة بلانش، كما من مكان بعيد .

- حتى أنها رغبت في قراءتها لي، هذه الرسالة . كان لديها صوتاً خارقاً . وكانت تقرأ هذه الجمل بعاطفة لم أستطع نسيانها أبداً . كما لو انها كانت، حقاً، جملها .

كان هيرفيه جونكور في طريقه إلى اجتياز الغرفة، بخطوات بطيئة.

- أتعرف، يا سيد، أعتقد أنها رغبت، أكثر من أي شيء آخر، أن تكون هذه المرأة. ليس بإمكانك أن تفهم، لكني أنا، سمعتها تقرأ هذه الرسالة، أعرف أن هذا صحيح.

كان هيرفيه جونكور قد وصل أمام الباب، وضع يده على المقبض. ومن دون أن يستدير قال بهدوء وداعاً سيدتي.

ولم يلتقيا مجدداً أبداً.

مكتبة

تابعنا على تيليجرام اضغطنا هنا

تابعنا على فيسبوك اضغطنا هنا

عاش هيرفيه جونكور بعد ذلك، ٢٣ سنة، كانت غالبيتها، سنوات طمأنينة، وبصحة جيدة. لم يبتعد خلالها، عن «لافيل ديو»، كما لم يغادر منزله مطلقاً. أدار ثروته بحكمة، ما جعله بمنأى عن أي عمل، إلا صيانة بستانه. مع الزمن، بدأ يجد متعة كان يرفضها دوماً: بدأ يروي رحلاته إلى الذين كانوا يأتون لزيارته. وهم يستمعون إليه، كان أهل «لافيل ديو» يتعرفون إلى العالم، أما الأطفال فيكتشفون الدهشة. كان يروي على مهل، ناظراً إلى سمات الأشياء التي لم يكن الآخرون يرونها.

نهار الأحد، كان يذهب إلى البلدة للقداس الكبير. ومرة في السنة، كان يجول على معامل النسيج، ليلمس الحرير المولود لتوه. وحين تحز الوحدة قلبه، كان يذهب إلى المقبرة، ليتحدث مع هيلانة. أما باقي وقته فكان ينساب داخل طقس من العادات، نجح في دفع السوء عنها. أحياناً، في الأيام العاصفة، كان هيرفيه جونكور ينزل إلى البحيرة ويقضي عدة ساعات في النظر إليها، لأنه كان يتراءى له، أنه يرى المشهد الخفيف والمتعذر شرحه، الذي يرسم على سطح المياه، ما كانت عليه حياته.

هذا الكتاب

بالرغم من أن والده تنبأ له بمستقبل لامع في الجيش ، إلا أن الأمر انتهى بهيرفيه جونكور ، بأن يكسب قوته ، بفضل مهنة شاذة ، لم تكن غريبة عنها - ولسخرية القدر - تلك السمات المحببة التي تنم ، جيداً ، عن انعطافة نسائية ملتبسة .

كي يعتاش ، كان هيرفيه جونكور يشتري دود القز ويبيعه .